

بقلم « مي »

يطلب من

مكتبة الهلال

بشارع الفجالة بمصر

المطبعة الرحمانية بمصر

لصاحبها عبد الرحمن [illegible]

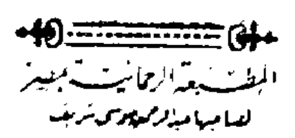


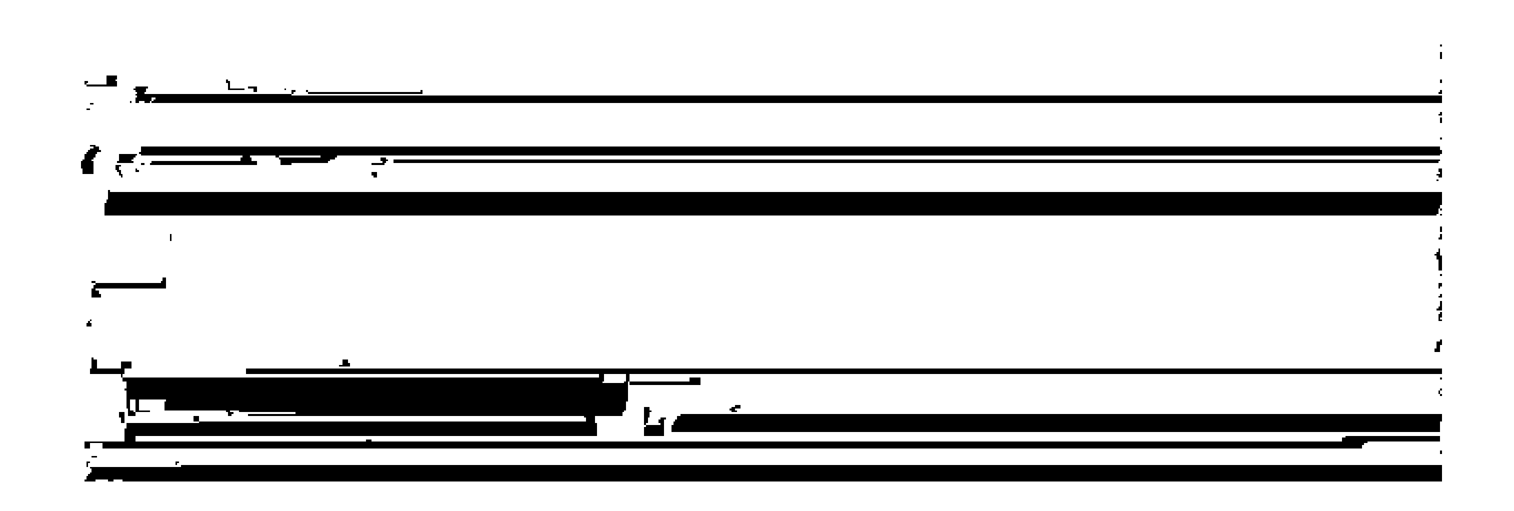
بقلم « مي »

يطلب من

مكتبة الهلال

بشارع الفجالة بمصر





تمهيد

أما رأيت الثريَّ تنهب الارض سيارتهُ كان السعد أقام من الابَّهة والرواء هالةً بينه وبين سواه، وهناك في الزاوية يدبُّ المعدم ويعتفي متأوهاً كأنه في تمرُّغه حشرة خبيثة تأنف الارض مسّها وتمقت انعكاس ظلها ؟

أوَما رأيت الحسناء ترتدي الثياب الفاخرة على أحدث هنـدام ، وفي عنقها ومعصمها جواهر توازي ثروة وتصوِّرُ نعيماً — أما رأيتها تمرُّ رشيقة معطرة أمام امرأة رثة الثوب تحمل طفلاً هو آية ذلها في الغد كما هي علة ذلِّهِ اليوم ، والذباب يأكل من مآقيها ووجنتيها ما لا تستطيع ازالته لانها فقيرة حتى من الماء الطهور ؟

قد تخفي مظاهر البؤس مالاً وعقاراً وقد لا تـكون دلائل العزّ سوى نفخةٍ واستهتار غرور . على ان المشهدين يمثِّلان من سلّم الـكفاف أعلى الدرجات وأدنى الدركات ، وبينهما تتحاذى الرتب على اختلافها بما يلازم ذويها من عوزٍ منوَّع واحتياج لجوج

ازاء هذين النقيضين حنَّ الشعوريون الى اخوة الروح تبدو بين طبقات المجتمع ، وعمد المفكرون الى المقابلة والاستنتاج ، وقام المحرومون يصرُّون صريرا . وانبرى النظريون يعيِّنون حقوق الناس على الناس ، ومثَّل الشاعرُ الحماسيُّ دورهُ فأرسل « هايني » زفرات كأنها المتفجرات هولاً وتحريضاً حيثُ هتف « ملعون هو الاله ، اله السعداء . . ملعون هو الملك ملك الاغنياء . . وملعون هو الوطن المجازف ببنيه ! »

وليس جميع هؤلاء ليسلِّمون بان شكايتهم تعارض نُظم الطبيعة ، بل هم يتسلحون بالحجة والبرهان مشيرين الى الشمس تسكب النور والحرارة على الاشرار والصالحين . ويستشهدون بالهواء يسدي الحياة الى الحيوان والانسان ولا يكون على الجماد ضنيناً . ويدلُّون الى الارض تمتشُّ في حضنها المعادن وتكلأُ المرعى لكل ذي نسمة يرتعي . ويومئون الى منبسطات البحار تضمُّ مختلف السمك والوحش المائي من كل فصيلةٍ وحجم ولون . ويذكرون اللحد يحوي

الموتى قاطبةً على نمطٍ واحد ليدفع بهم الى الانحلال فريسةً والى التحوُّل مادةً . فاذا أُجزلت الطبيعة الهبات ودعت جميع بنيها الى امتصاص ثديها المدرار فانَّى للكبرياء أن تخلق التمايز والتفاضل ، وتجعل بين البشر فروقاً وسدوداً فتشلّ عضواً لتقوِّي عضواً ، وتحرم قوماً لتمتع قوماً ؟

هم يتساءلون عمَّا حلَّل هذا الجور المرهق،ويصيحون بقوة انفعالاتهم واحتياجاتهم : المساواة ! إنما نطلب المساواة !

ان لم يتمرَّد العبيد بهذه الكلمة وبمعناها العصري فانما التوق المبهم اليها هو الذي اضطرهم الى تكسير القيود ، والخروج على سادتهم مرة بعد أخرى في تعاقب العصور القديمة ، حتى باتت أثينا وروما من أولئك الثورات في خطرٍ عظيم

هي التي دمدمتْ في نفوس عشرين ألفاً من العبيد أن يفزعوا الى الاسبارطيين يوم احتلُّوا جانباً من بلادالاغريق في الحرب البيلوبونزية . طمعاً في الحصول إن لم يكن على

تحريرٍ تام فعلى تحسين مبين

هي التي نفثت العصيان في قلوب عبيد مناجم اللوريوم وقوّت سواعدهم للفتك بحرّاسهم والمسيطرين عليهم ، فاستولوا على حصن سونيوم وانزلوا في اتيكا الجميلة خراباً ودماراً

بالهامها انقلب اسبارطقس التراقي زعيماً لاخوانهِ العبيد في روما فحارب على رأسهم جيوش الدولة النظامية يقودها الكبراء والنبلاء ، ولم يكفّ عن النضال الا بسقوطه صريعاً بطعنة أرسلتها يدُ كراسس أحد أعضاء الحكومة الثلاثية العليا . ثم أي قوة أقامت دولة المماليك في مصر ان لم يكن التطلّع الى المساواة ؟

لأجلها شبت الثورة الفرنساوية وانبرت تعلن للانسان حقوقهُ المدنية المرتكزة على الحقوق الطبيعية ، فأثبتت في مطلع بيانها بنداً أول يشاركها اليوم فيه العالم المتمدن ، وهو ان « الناس يولدون ويظلون متساوين أحراراً ازاء القانون » . فحذفت بهذا البند نظام الاقطاع القائم على

تفاوت الحقوق والواجبات

وباسمها اعتصمت المرأة فنهضت من تحت قدم السيد الساحقة ووقفت عالية الجبين ازاء مسالك الحياة وأعمالها. وفي سبيلها وضع ماركس كتابهُ الشهير صارخاً «اتحدوا ياعمَّال العالم!» فتبارى الزعماء في تكوين الاحزاب، وسنّ القوانين، ونشر اللوائح، واقامة المؤتمرات الثلاثة لاتحاد العمال الدولي. وهي هي التي هزّت الروسيا من أقصاها الى أقصاها وأضرمت تحت سمائها شعلة الثورة المدلهمّة

اذكرها يتزاحم حولك جمهور دعاتها وكهنتها: ماركس، لاسال، انجلس، برودن، باكونين، كروبتكن، وعشرات غيرهم يدحضون مذهب داروِن وهوبس القائل بتنازع البقاء بمذهب التضامن والتعاون البادي بين جميع الموجودات

بل اذكرها يضجّ حولك هتاف الشعوب، وصراخ المراتب الاجتماعية، وأنين المحتاجين والمتوجعين. هؤلاء لا يفقهون معناها تماماً ويزعمون انها مشاركة الغني بغناه،

والوجيه بوجاهته . والمنعم بنعمته . وحسبهم انها تخفي عنهم شبح غدٍ غدّار لا يضمن لهم ولذويهم الغذاء . أو يرون فيها انفراجاً معتدلاً لضيقهم . كذلك العامل الانجليزي القائل «أتريد أن تعرف ما هي المساواة : عشر شلنات في النهار ، ياسيدي»

تكاد تكون المشاكل الدولية ألاعيب اذا ما قوبلت بالمشاكل الاقتصادية التي يسمّونها اجتماعية . ومشكلة «المساواة» هي الآن أم المشاكل ، واسمها يطنُّ من كل صوب

وانها مع الحرية والاخاء لتهزّ نفسي ؛ وقد لمَستْها منذ ان كان لي نفس تتحرّك . غير اني وصلت الى نقطة أودُّ عندها تحليل كل شعور وكل تأثير

ما هي المساواة ، وأين هي ، وهل هي ممكنة ؟ هذا ما أرغب في استجلائه في الفصول الآتية دون اندفاع ولا تحيُّز ، بل باخلاص من شكّلت من جميع قواها النفسية والادراكية محكمة «محلّفين» يستعرضون خلاصة ما تقولهُ الطبيعة والعلم والتاريخ ليثبتوا حكماً يرونهُ صادقاً عادلاً

١
الطبقات الاجتماعية

أصل الخليقة في الميثولوجية الهندية ان بيضة الذهب الحاملة برهما كانت تطوفُ على وجه الغمر عندما انطلق منها الاله ،فانفلقت قشرتُها فلقتين كوَّنت إحداهما السماء وكانت الارضُ من الاخرى . ونشر برهما الاثير بين الارض والسماء ، ثم خلق الكواكب والنبات والاشجار والحيوان فتهيَّأت الارض لسكنى النوع البشري ٠ اذ ذاك سحب من رأسه رجُلاً يُدعى برهمانا وسلمهُ « الفيدا » أو كتب الهند المقدسة مستودع الحقيقة الخالدة ٠ ومن برهمانا هذا ولد البراهمة الذين عهد اليهم في نشر الديانة وتعزيز أصولها ٠ ثم أخرج برهما من ذراعه اليمنى محارباً يدافعُ عن الكاهن ويبقيهِ منيع الحوزة محميَّ الذمار ٠ واستلَّ من فخذهِ رجُلاً ثالثاً هو الفلاَّح الذي يهيء للجندي وللكاهن الغذاء ، والتاجر

الذي يمهّد امامهما وسائل الحياة ويضمن لهما موارد الرزق والثروة • وأخيراً انتزع من قدمهِ المقدسة رُجلاً رابعاً هو أبو الصنائع وزعيم طبقة العاملين للآخرين • ومن هـذه المخلوقات الاربعة المخترجة من جسم برهما تسلسلت شعوب الهند بمراتبها الاجتماعيـة . تضاف اليها طبقة الاسافل المتشردين (وما هي إلا حثالة الطبقات الاخرى) المختلفة عن أبناء برهما بما توعزهُ من رعبٍ واحتقار لأنها خلاصة القبح والتعاسة

لقـد ارتفعت قيمةُ الفـكر الهندي في هـذا العصر ارتفاعاً كبيراً بمـا يرمي اليه من حقيقة علمية فلسفية وراء أسلوبهِ الشعري ومظاهره الخيالية • ومغزى هذا الرمز الى الخليقـة ان البشر وان كانوا أبناء إله واحد ، مخلوقـين على صورة واحدة يستمدُّون الحياة من أصلٍ واحد ، ويعجن جسمهم من طينة واحدة تماثل بها احتياجاتهم ورغباتهم — الا انهم في الوقت نفسـه أسرى التنوع تـكييفاً ، أسرى التنوُّع قهراً • يقيدهم هذا التنوع الأولي فيحبو كلَّ فردٍ

وكل طائفةٍ منهم، كفاءةً تختلف عن كفاءة الآخرين ،
وبودعهم براعة وحذقاً يتساويان قوة عند الجميع وان تميزا
مظهراً طبق العمل المطلوب

وهل للاجتماع من انتظام لولا تنوُّع الطبقات وتنوع
الكفاءات ؟ وهل تبدو طلائع المدنية بلا تقسيم العمل طبقاً
لقابلية أفراد وجماعات ينجحون في فنٍّ ويرسبون في فنّ
آخر ؟ وأنّى لنا العلماء والفلاسفة والفنانون والابطال
والاختصاصيون في كل صنعة لولا التميُّز والاختلاف ؟ فلو
أبدنا التنوع في أصوات الخليقة بحذف درجات السلم الموسيقي
السبع أبدنا فن الموسيقى بحذافيره وما بقي لحاسة سمعنا
سوى نغمة تطَّرد الاستمرار على وتيرة فردة . ولو
لاشينا الالوان السبعة من التحليل الطيفي فقدَ الشعاعُ
خواصَّه وانتهت بنا واحدية اللون الى الظلام . ولكن في
الظلام نفسه درجات لأنه محبوك الطرفين بالشروق
والغروب . أليس ان الشفق غير الغلس ، وان هذا وذاك
غير انتصاف الليل الادهم ؟

ليس امامنا سوى الكثرة والتعدُّد عند ما نفتح أنظارنا على الكون فنرى الكواكب متألقة في فضاءٍ يحتويها ، ونرى الماء واليابسة ، والجبال والوهاد ، والاشجار والصخور ، والمروج المخصبات والصحاري القاحلات ، فضلاً عن صنوف الحيوان . ثم لا نلبث ان نردّ جميع هذه المظاهر الى أصول أو أنواع كبرى ثلاثة هي النوع الجمادي ، والنوع النباتي ، والنوع الحيواني الذي يتناهى ارتقاء ودقة في الانسان المدرِك المرغَم على تمثيل دورهِ في مأساة الوجود ، لانهُ جزءٌ من هذا الوجود وتسري عليه جميع نواميسه ان راضياً وان كارهاً

وكما ان الحياة الجمادية في دورها الهيولي كتلة عظمى لم ينمّقها التكييف صوراً وأشكالاً كذلك البشر في همجيتهم كلٌّ متماثلٌ لا تنظّمهم المراتب ولا كبير منهم ولا صغير . وهذا شأن بعض القبائل المتوحشة في أفريقيا وبين هنود أمريكا الى أيامنا . هم يعيشون جماعات صغيرة ولا شاغل لهم غير ما يشغل الحيوان الاعجم . إلاَّ ان الكثير من

فصائل الحيوان فروقاً اجتماعية : فعندها الملكية المطلقة، والارستقراطية ، وثوروية تتطلّع الى الهدم ، وغيرها يطالب المساواة ، وبالجملة فان قضيتها الاجتماعية تكادُ تشبه مثيلتها عند النوع البشري . وقد تسهل مراقبة هذه الفروق بين حيوان المنازل، كالنمل مثلاً الذي يظهر عندهُ تقسيم العمل ظهوراً تاماً . فمن أعضائه العامل المنتج . ومنها المحارب المدافع ، ومنها العبد الرقيق . وبعض العشائر تغزو بعضها فتقهرها وتستعبدها ، انما تعاملها برفقٍ ولين

* * *

ابتدأ دورُ تكوين الشعوب بانتشارها قبائل يتقارب منها الجوار بتقارب الاصل ، ولكل قبيلة وسائلها الحيوية في موارد موطنها الطبيعية، التي هي بدورها ربّت في أعضاء القبيلة ذكاء ومهارة موافقين لاستخدامها . فاصطنعوا لانفسهم تلك الادوات الحجرية والفخارية . واخترعوا القوس والنشاب ، وآلات حرث الارض وطريقة فلاحتها، واكتشفوا النار ووسيلة اضرامها . وكانوا يشتركون في

استعمال هذه الادوات والآلات عند الحاجة لانها ملك الجميع الذي كان يعمل له كل فرد تحت مراقبة زعماء أكفاء ويُضمَن له مقابل تعبهِ السكن والقوت والكساء في حالتها الاولى . فينجلي من هذا ان الاشتراكية سبقت كل نظام آخر في حياة البشر . ومع ان هذه الاشتراكية مشوبة بخلل كثير الاَّ انها حسنة بالنظر الى زمنها، ولأنها أول خطوة في عالم النظام والتدريب . وقد لاحت فيها أول بارقة من بوارق النبوغ الذي سيكشف أسرار الطبيعة ويتغلب على عناصرها في العصور التاليات

تطوَّرت حياة القبائل قليلاً ونمت مدارك الافراد فيها فاتجهت تدريجياً نحو غاية واحدة وهم لا يعلمون . فتلك التي قطنت المروج اقتنت الغنم والخيل بعد تأنيسها ، ونظَّمت القطعان للانتفاع بخيراتها من حليب وما يتأتَّى منه في حياتها ، ومن جلدٍ وصوف بعد ان تنفق، فتوفر لديها من ذلك ثروة طائلة . فطمعت في توسيع فلاحتها طلباً لثروة أعظم ، وكان ذلك سبباً لاختلاف القبائل فيما بينها على مسألة الحدود .

فقامت المناوشات والمعارك ، وانتصر هذا واندحر ذاك ، فشعر الغالب لأوّل مرة بنشوة « السيادة » ، ونُهبت القبيلة المغلوبة وضُمَّ أعضاؤها الى القبيلة الغالبة . الاّ أنهم كانوا يحسُّون بفرق بين الجماعتين ، وبكآبة مقابلة لنشوة « السائد » ولم تكن تلك سوى كآبة « المسود » . وهذا منشأ الاوتوقراطية والرقّ

وجرى مثل ذلك تقريباً في الاودية المخصبة حيث عنيت القبائل بزراعة صنوف النبات والاشجار . والخوف من غارات القبائل المجاورة دفعهم الى انتخاب زعماء حربيين يهيئون خطوط الدفاع ازاء هجمات العدو . فارتفع هؤلاء الزعماء ، مع الوقت ، الى درجة سادة يسيّرون الفلاحين ويتقاضونهم بدل الارض التي يستغلُّونها ، ويفرضون عليهم الضرائب . الى أن أنشأوا الرقَّ في أملاكهم من سلائب العدوّ وغنائم الحروب

كذلك عند مَصبِّ الانهار . فان القرصان استوطنوا الشواطئ ليسهِّلوا الملاقات بين الفلاحين وقبائل الجبال ،

ولما تبينوا رعب الفلاحين ورغبتهم في صدّ الغارات عن حياتهم الهادئة نظّموا قوة حربية وانقضوا كالصاعقة على الضعفاء فسادوهم ، وانقلب الاحرار عبيداً

تمّ ما يشبهُ هذا بين القبائل القديمة يقودها جماعات وأفراداً ذلك الشعور العريق في قلب الانسان ، وهو الطمع في السيادة والسعي إلى التفوّق . وسرعان ما عثروا على عماد السيادة وهو المُلك ، أو رأس المال كما يسمونهُ بلغة هذا العصر . وهذا الملك لم يكن ليتأتّى إلا من الذكاء والمهارة ، أو الامتياز بصفة أو كفاءة خاصة . فاخذوا يتملكون الاراضي ويحشدون الثروة من الموادّ المنظور اليها كثروةٍ في ذلك الحين . وكان ذلك الفصل الاول من تاريخ الاقتصاد البشري الدائر كلّهُ حول ذلك المحور الرهيب الذي يدعى المُلك . فالحصول على الملك والاحتفاظ به من جهة ، والرغبة في نزعهِ من جهة أخرى سببت هذا العراك المالي والاجتماعي الذي لا ينتهي . فكوّن الارستقراطية والعبودية ، وسبّب المجازر والفظائع ،

ولأجله شبت الحروب، ونشبت الثورات، ودكت الحصون ودمرت أجمل آثار العمران. وتشكلت الاحزاب العديدة. فهذه ديمقراطية، وهذه جمهورية، وتلك اشتراكية، وغيرها فوضوية. ومنها القائل بتمتع الفرد بأملاكه، ومنها المرتئي جعل الملك مشاعاً للجميع، ومنها الضاحك من كل حزب بتفجّر القنابل وهدم الصروح وإزهاق الارواح. وقد أدّى التزاحم والتقاتل الى انتشار الاقوام فسعوا فى الارض يروّجون تجارتهم ويكثرون أرباحهم ليحفظوا لهم المكانة والوجاهة في جماعتهم. وتوطد نظام الوراثة لأن السيد العظيم كان يشرك أولاده في إدارة الاملاك. فيتمرن عادة الولد البكر على فن الادارة والحكم وينتهى اليه حق الارث الاكبر

* * *

وبدهي أن الاب كان يعامل أفراد عيلته كمعاملة زعيمه له، فان ظلمهُ ظلمهم وان أنصفه كان لهم منصفاً. وكذا تكونت الارستقراطية في داخل الاسرة في حين

كانت تتكون في الجماعة أو في الدولة . فكانت الارستقراطية أو الاشراف يشمل عميد الاسرة ووالديه ، ويليهم أعضاء الاسرة الآخرون ، وتلي هذه درجة الخدم أحراراً وعبيداً . فهناك بلاد اليونان مثلاً في زمنها الاقدم ، أي العهد الملكي المطلق . حيث تجد طبقة مؤلفة من جميع رؤساء الأسر ، وهم في الغالب نبلاء كالملك نفسه ، وينتسبون للآلهة مثله ويحملون لقب « ملك » . لذلك يذكر هوميرس ملوكا كثيرين في مدينة واحدة ، يجتمعون لدى الملك ليسدوا اليه النصح في شؤون الدولة أو ليسنوا له إرادتهم . وكانت الطبقة الثانية من ذوي القربى لاولئك الزعماء ، وهم ارستقراطيون ولادة وحقوقاً ، يملكون الاراضي أحراراً أو يتمتعون بنتاج أراضي الاسرة المشتركة . وإن لم يكونوا يحضرون اجتماع الملوك فانهم كانوا أعضاء جمعية أبناء الوطن العمومية . وخضوعهم الوحيد في امتثالهم لكبير الاسرة بينما هذا لم يكن ليمتثل لغير الملك . وتؤلف الطبقة الثالثة من خدم البيت المنقسمين إلي عبيد وإلى معتوقين . وعدد

هذه الطبقة قليل لأن العمل اليدوي لم يكن محتقراً ، ولم يكن أبناء « الملوك » ليترفعوا عن فلاحة الارض ورعي المواشي . وكان هناك طبقة أخرى تحوي من لم يكن يخص أسرة كبرى من أهل الصنائع : الدنيا والعمال والشحاذين ، وقطّاع الطرق وأمثالهم

وتعيّنت مع الزمن الفروق الاجتماعية واكتسبت كلٌّ من الطبقات صفاتٍ تُنسَبُ اليها وعيوباً خاصة بها . وتجبَّرت الطبقات العليا في سماواتها الوهمية وحسبت نفسها من طينةٍ مختلفة عن طينة الآخرين ، لها من ألقابها وثروتها وامتيازاتها ما يفتح لها أبواب الالوهية على مصراعيها . ونما الادراك ونور الشخصية في الطبقات الاخرى شيئاً فشيئاً حتى وصلنا إلى حيث نحن اليوم . إذ لا بدَّ بين البشر من تبادل المنفعة والتضحية : فاذا انتفع قوم دون أن يضحُّوا شيئاً كانوا مغتصبين ظالمين . وإذا كانوا كثيري التفادي قليلي الانتفاع كانوا مظلومين

مهضومي الحقوق . ولئن كانت المصلحة الذاتية وراء جميع الاعمال فهذه المصلحة ، أو الانانيـة ، موجودة في جميع أجزاء الكون كأنها عنصر جوهري لحفظ الوجود

إنّ النوع البشري وإن امتاز عن الطبيعة المحسوسة بطبيعته الادراكية ، والاخلاقية ، والروحية فهو يظلُّ مربوطاً بها بجسمه واحتياجاته المادية ، خاضعاً لجميع تطلّبها وفي ميوله ميول وحشيا : فهذا قرد ، وذاك ثعلب ، وذلك عقرب ، والآخر ثعبان . وأما التنوع بين الطبقات وبين الافراد ، وبين مظاهر الطبيعة فأصليٌّ ولولاهُ لما كانت الخليقة . وأرجّح ان أفلاطون يوم كتب « جمهوريتهُ » ضرب صفحاً عن هـذه الحقيقة التي لا أدري كيف استطاع إغفالها

لقد طال تأمل روسو في حالة البداوة الأولى ، وقام هو وأتباعهُ ينادون بالعودة اليها لتحصل الانسانية على الهنـاء المفقود ، وترتع ـفي بحبوحـة السـلام

والحرية . وقد نسوا أن الهمجيّ مستَعبَدٌ بجهلهِ الفادح وأن لهُ من الخرافات سجناً لعقلهِ ، ومن الاوهام حجاباً لروحهِ . فهو وإن كان حراً حرية نسبية من حيث علاقته بامثاله وبقناعته — التي لا يمكن أن تدوم أكثر من زمنٍ ما — فهو أسير أحطّ أنواع العبودية وأخطرها .

وهيهات الرجوع إلى الماضي ! إذ أن عودة النظام الشمسي المندفع بسياراته وأقمارهِ نحو النجمة الكبرى من كوكبة الشلياق — قلت أن عودتهُ إلى حيث كان منذ مائة ألف سنة توازي في نظام الكون تجريد النوع البشري مما اكتسبهُ بالالم والخبرة والبطش خلال تحدُّر الدهور.

خلفنا قوة نجهلها وتتجاهلنا ، هي قوة الحركة الدائمة في جميع مناطق الحياة ، تدفع بنا أبداً إلى الامام فنسمّي سيرنا ارتقاءً . وقد يكون الارتقاءُ المزعوم تقهقراً في نقطٍ شتى على أن ما لا مهرب منه هو السير المرغم ، هو التحرُّك المتواصل ، هو الاستطراد الذي لا راحة منهُ أمام القبر ولا وراءه

يتعذّر علينا فهم ما هو « الوراء » وما هو « الامام » في معاني المكان والزمان والذهن . ورغم ذلك يمكن القول أن اتجاه التاريخ البشري بمعنى التقدُّم والتحسن وإن كثُرت حركاتهُ الرجعية واللولبية . « إلى الامام ولو على الجثث ! » ليست كلمة حماسة شعرية قالها غوتي الالماني فحسبُ وانما هي صوتُ الخليقة القاهر ، هي صوت توالي الاشياء وتناسخ الموجودات . هي انبثاق الحركات من الحركات ، والذراري من الذراري . والانظمة من الانظمة

لا بدَّ من تنوُّع الصور وتعدُّد الطبقات . فلولا التنوُّع والتعدُّد ما كانت المدنية ولا كان الوجود الحسي . ولو لم يكن للفروق من فضل سوى شحذ العزائم ، وإرهاف القوى ، والتسابق إلى الاولوية لكفى لنقبلها محاولين عبورها بما أوتينا من عزم وكفاءة . والفوز للاصلح دواماً

٢
الارستقراطية

لو كان هذا البحث تاريخياً لكنتُ بدأتهُ بالكلام على الملكية ارستقراطية الارستقراطية على نوع ما ، أو أفضلية الافضلية . لا سيما الملكية التيوقراطية أي المستمدة سلطتها من الله . فاستنجدتُ بالاساطير التي هي سجلّ الانتقال من واقع مجهولٍ مأثور إلى واقع مزعوم منشورٍ يقبلهُ من أهل السذاجة من قبل واقتنع ، ويكتفي الآخرون بالتمويه والمحاباة . استنجدتُ بها لطلب جرثومة تلك الأُسر الشاهانية الجُليّ ، فماشيتها في نشأتها التدريجية سائدةً على العائلة ، فالقبيلة ، فالمجتمع ، فالامة بالقوة البدنية أو الفكرية ، أو التدبيرية ، حتى عدَّها متلاحقُ الظفر عطامع تتعدّى أفرادها العصاميين إلى سلالة المستقبل . أمّا والناموس الكونيّ ناموس بقاء الافضل ، يستخدمُ

ولا يُستَخْدَمُ في ضمانة الافضلية لتلك السلالة ، فلا بدّ من صيانتها دون منافسة المزاحمين ولا بد أَن تُملأَ قبل الرماء الكنائن . ومن ثَمَّ التذرّع بأقوى البواعث النفسيّة من عاطفة دينية وخشية ما وراء المنظور . من ثَمَّ استجارة الملك بالدين والدين بالملك لتبادل المنفعة ، فيصبح الحاكم حامي حمى العقائد ورافع منار الفضائل ، ويصبح الكاهن حامل لواء السلطة الفردية وأوّل شاهد بأنها آتية من الله . ولا يطول حتى تستهوي البدعةُ ملفقّيها . وهل من عجب ما دام الاستهواءُ الذاتي شرطاً أساسياً للاستهواء الغيريّ ؟ فلا يستفز الخطيب حماسةً إلاّ عند تحمُّسهِ ، ولا يُحدثُ الكاتب تأثيراً إلا بعامل تأثره . ومَن ذا ينفي أن انجذاب الشهداء واستهواءهم الذاتي في مصرع العذاب بين الضواري الممزقة لجثمانهم . واقتحامهم الموت بصبر الامل وثقة الشجاعة ، إنما كان أعظم نصير للمسيحية على الوثنية وأسمع داعٍ إلى الانسلاك فيها ؟

هكذا صار الفراعنة مع الزمن — على نحو ما وجد الفتحُ

الاسباني بعدئذٍ زعماء القبائل في أمريكا الجنوبية — أبناءَ الشمس المنيرة . وهكذا صار زعماءُ الجرمان صنيعة فخذ « تهور » اله الحرب فغدوا أحفاد « أودين » الاله الاسكندنافيّ الميثولوجي واهب البسالة وعلّة المغلولات . وهكذا صار المهرجاه ثمرة تقمص من تقمصات ڤيشنو الاقنوم الثاني من الثالوث الهندي، فضلاً عن أن جماعةً من ملوك اليونان واللاتين وأبطالهم جاءُوا من تزاوج البشر والآلهة عند مرور هؤلاء على الارض. وصار من الملوك من إذا رُؤي صُعق رائيهُ كأن جلالهُ جلالُ المولى في عليقة موسى . وأُوتي آخرون علماً وحكمة خارقين كملوك فرنسا وانجلترا يشفون الصرع . والشلل ، وداءَ الخنازير. وغيرها بمجرّد اللمس الكريم . وظلت القرون الوسطى ، بعد الاولى ، ترى هالة الالوهية حول الملكية وتحسب حبل سلطانها مشدوداً بمتكإِ العرش الصمدانيّ حتى اليوم وقد استوضح التمحيصُ من خفايا الترهات والتقاليد الذميمة شيئاً كثيراً واتبع فنُّ النقد

الدماء الملكية في رحلاتها المتعرّجة خلال الانساب الجمة
انتهي حتماً إلى المصبّ المقصود — كأنها الرجل المستقيم
لا يمنعهُ اعوجاج المحيط عن الاهتداء إلى الصراط السويّ.
اليوم وقد ناوش استقلالُ الشعب أثرة الفرد وتغلّب عليها
بالنظم الدستورية، فأبقى للفرد السلطة النظرية واجهةَ
تزويقٍ لبنيانٍ فيهِ تتصرَّف الامة بشؤونها الادارية
والقضائية والسياسية. اليوم وقد قضت الحربُ على البقية
المتمهلّة من الحكم المطلق بقضائها على قيصرية المانيا والنمسا
والروسيا، بعد أن قضت الثورةُ العثمانية على الاستئثار
الحميدي. اليوم ما زالت الجماعات تهيّب مظاهر الابهَّة
الملوكية. لان الاستهواء الحسيّ الوقتي يُضاف الى
الاستهواء الوراثيّ المتراكم الذي يتناول المرء كائنةً
حريتهُ الشخصية ما كانت، ويعُدّهُ للتأثر والاستسلام
كما تتأثر القنبرة بضياء المرآة الساطعة فتجمد أو تستسلم
أقول الجماعات وأعني الافراد كذلك. أعني أقوى
الافراد شوكةً وأبقاهم أثراً، تنكسر شوكة الملوك ويظل

صوتهم مسموعاً ويعفى أثر القياصرة وهم أبداً خالدون .
ففولتر أحد مهيئي الثورة الفرنساوية والهاتف باحترام الفكر وتقديس الحرية الفردية ، يراسل رهطاً من ملوك أوربا ويقبل صداقتهم . ولا بأس بهذا ، إنما الشيء الفريّ انهُ يختم رسائلهُ بوضع احترامهِ وتعلقهِ وولائهِ « تحت اقدامهم » . وقاسم أمين المصلح الجريء يطمعُ في تقديم كتابه « تحرير المرأة » إلى سمو عباس الثاني .
ورابندرنات تاغور الهندي نبيُّ وحدة الوجود المثبت في قصائده أنشودة الحياة مترددةً من كوكب إلى كوكب ، ومن ذرّة إلى ذرة ، يحملُ لقب « سير » أنعم بهِ عليهِ جلالة ملك انجلترا . وما هم جميعاً في ذلك إلاَّ من بني الانسان !

* * *

ولو كان هذا البحث تاريخياً لدرستُ أحوال بلادٍ لا ارستقراطية فيها ، كاليونان الحديثة ورومانيا وصربيا ، وأحوال بلادٍ أخرى كانت فيها فألغتها مثل نروج

والبرازيل . ولأَلمعتُ الى السلطنة العثمانيـة والسلطنة المصرية حيث ، عدا العائلة المالكة ، لا ارستقراطية سوى ارستقراطية اللقب العرضي المنوط بالفرد دون ذريتهِ . نعم ان رشاش الباشوية يصلُ الى الانجال فينقلبُ بيكوية ، ولكنهُ ينتهي عندهم ويفنى فيهم ولا ينتقل منهُ الى أبنائهم شيء . فحفيد الباشا افندي مجرّد ، إلا ان الافندي الذي لا تحصي شجرةُ عائلتهِ بيكاً واحداً يستطيع ، هو ومن دونهُ ، ان يصير باشا اذا رمقتهُ الاحوال بنظرة الرضى

وإذَن لكنتُ أُقابل بين الالقاب الوراثيـة في الشرق والغرب واستفهم عن اصطلاحات احار في تفسيرها . منها ان البرنسس بتريسيا أوف كونوت ابنة عم جورج الخامس ، وإبنة أخي ادورد السابع ، وحفيدة فكتوريا الملكة والامبراطورة — تزوجت في العام الماضي بسماح الملك ، ابن لورد بسيط أهلّتهُ لها شجاعةٌ ابداها خلال الحرب ، وتبادلُ عاطفة الحبّ التي تسوّي بين الدرجات وتمحو فروقها فتُشرّف كل ما لمستهُ بانامِلها

الخفيـة . فتنازلت البرنسس عن لقبها ومرتبتها ، وأصبحت بكل بساطة « لايدي رامساي » تدخـل في الاحتفالات الرسميـة وراء جميع البرنسسات والدوقات والمركيزات والكونتسات ، الى آخر ما هنالك من طغمات الالقاب — في دور لقب « اللادي » الضئيل الذي تحمله . بعد أن كان لها في هـذه المواقف أقرب مكان في جوار الملكة . يخيلُ اليّ ان هذا ينافي المعقول في أمة يجوز أن تحكمها النساء ، وقد فعلن . اذ كان المنتظر ا . ـ امرأة كالبرنسس باتريسـيا ان لم تعطِ زوجها لقباً كلقبها فهي تحفظ اللقب لنفسها . على الأقل ، كما بقيت جدتها ملكة انجلترا في حين ان قرينها لم يكن الا برنساً المانياً فقط

وبخلاف ذلك هنا في مصر حيثُ لا تكون ولاية العهد والحكم لغـير الذكور . فان البنات الحاملات لقب برنسسات اذا هنّ تزوجن برجـل ليس بذي لقب لا يفـقدن لقبهنّ العائلي ، ولا يفتأن يحملنهُ ويُنادَين بهِ . يُنادَين بهِ ليس تزلُّفاً أو مجاملةً بل هو حق لهنّ مدوّن في

كتاب الالقاب الرسمية ، معترف بامارتهنّ من البلاط السلطانيّ

ولربَّما هبطتُ دركة أخرى لأرسل نظرةً في الالقاب اللبنانية المدهشة بإباحيتها . ففي جميع البلدان الكبيرة والصغيرة يرثُ لقب الشرف الابنُ البكر . ولأعضاء العائلة المالكة لقب برنس وبرنسس على شريطة أن يكونوا أبناء ملك أو أحفاده ، مباشرةً من جهة الذكور . أما في لبنان حيث انقرض الحكم الوراثيّ منذ عشرات الأعوام فأبناء المير أو الأمير يولدون أمراء ، وأبناء الشيخ مشايخ كلهم كلّهم لا يتملّص من هذا المقدور فردٌ أحد . فلو نفّذنا هنا القانون الساري في جميع البلدان وأجرينا التصفية اللازمة لهذه الشيوعية المطلقة ، فأي رياضيّ ينبئنا كم شيخ وكم مير يبقى من عملية الطرح الباهظة ؟ لو اقتصر اللقب على ابن الحاكم الاصلي وحفيده ، وظلَّ فيما بعد متتابعاً بالوراثة الى البكر من الذكور . فكم مُلقَّب ياترى يفلت من مجاجة المممة اللقبيّة ؟ ومما يلفت

ان زوجة المير اللبناني كانت تُعرف أيام حكمهِ «باستّ» وما زالت بطاقة الزيارة لها على هـذا النصّ بالعربيـة والفرنجية « مدام الامير كذا كذا » . ولـكن يظهر ان « ارتقاء » بعض الاهالي في بيروت ولبنان وفي المهجر آل الى كرم حاتميّ بالالقاب ، فصارت كل سـيدة « أميرة » قبل زواجها وبعـدهُ : وفي هذه الحال الاخـيرة يضاف اسم عائلة زوجها الى اسم عائلتها : كل هـذا والبرنسس باتريسـيا حفيدة أعظم أمبراطورية وأعظم دولة عرفها التاريخ الى الآن ، تحملُ لقب لايدى رامساي !

* * *

يرى بعضهم الملكية وارستقراطية الحسب متلازمتين إذا وجـدت الواحدة قامت الى جانبها الاخرى . وفي هـذا القول صواب وخطأ . أما الصواب ففي احتياج الملـكية الى ارستقراطية تتكل عليها . وأما الخطأ فلأن الارسـتقراطية في غنى عن الملـكية تستطيع أن توجد وتنمو بدونها . لذلك نرى الارستقراطية في تعريف

ارسطو اقليـة من ذوي الاهلية والفضـل يسودون في جمهورية فيـديرون منها الشؤون، وينفّذون القوانين الموضوعة بأمانة ودقة ، ويقومون بعبء الحكم حباً بالمصلحة العامة والخير العام . ويضارعهُ تعريف شيشيرون في كتابهِ عن الجمهورية حيث يسمّى الارستقراطيين optimates وهي الترجمة اللاتينية الحرفية لـكلمة Aristoi اليونانية ، أي الأفضلين أو الاماثل . فمعنى الارستقراطية الأصليّ اذاً هو حكم الافضلين ، أو حكم الافضل

طبعي ان يؤلف المرء لنفسهِ جماعة تتفقُ مصالحها مع مصالحـهِ بقـدر الامكان ، ويثق من مساعدتها عنـد الخطر المداهم . والملـكية تتبع هـذا النظام الطبيعيّ ، اذ لا شيء ألزم للسلطة الوراثيـة من الارتباط بذوي الشرف الوراثيّ ، وتتوقع أن تبقى لهـا عواطفُ الشكر والولاء في آسرة اغدقت عليها هي وأسلافها الالقاب والخيرات . ولـكن طالما ضلّ هذا الأمل . ولئن وُجد يوماً من يُدعى هندنبورج وغيرهُ من كبار الضباط والقواد

الذين ظلوا يسمّون غليوم الثاني « ملكي وامبراطوري » بعد محنته ، وتطوّعوا في تقديم نفوسهم عنهُ للمحاكمة الدولية ، ففي التاريخ شواهد أُخرى هي عبرة المعتبر . كمعاملة أشراف انجلترا للملك غليوم اوف اورنج وجورج الأول . ومثلها معاملة أشراف الملكية الفرنساوية لنابوليون الاول ، ونابوليون الثالث ، ولويس فيليب ، وما كان بعد ذلك من سعي اشراف الامبراطورية النابوليونية (أي الارستقراطية التي خلقها نابليون) لارجاع البوربون واجلاسهم على عرش فرنسا !

في البشر استعداد كبير لنكران الجميل والتملُّص من قيوده، والايقاع بصاحب الفضل عليهم عند قضاء المصلحة. ورغم ذلك ما فتئ الملوك يوجدون الارستقراطية اللقبية جزاء خدمة جليلة وأملاً في ولاءٍ مقيم . وان لم يسلم ملوك الفكر من التقرُّب فليس من يتقن فنون التزلُّف ويبرعُ فيها كأولي العزّ التالد . فهذا الشريف الذي يزنُ نبرات صوته ، ويعدُّ خطواتهِ ، ويقيس اشاراتهِ مع

الخلق ومع نفسه تراهُ يتوقُ الى خدمة الملك سراً وعلانية . واذا أسعدهُ الحظ بمحاذاة سيده في احتفال رسميّ هرع يغسل يديهِ ، ويقبّل أنامله ان لم يمرّغ جبهته عند موطىء قدميهِ . وقدّم لهُ اطباق الطعام ، وملأ كأسهُ خمراً أو ماءً ، وحمل أوامرهُ الى الآخرين . فهو بالاختصار يمثل دور « جرسون » قهوة أو مطعم ، وهو بذلك فخور

الارستقراطية ضرورية لمنفعة الامة . آه ! اني أسمع زئيركم يادعاة المساواة ، وأرى ازوراركم أيها الاساتذة الديمقراطيون . انها ضرورية للاحتفاظ بصفات هي جزء من ثروة الامة . لان لكل طبقة قوةً حيوية اؤتمنت عليها . لستُ قائلة باحتكار القوى والكفاءات في بيئة دون بيئة . ولا أنا قائلة بذكاء ابن الذكيّ ، وبفضل ابن الفاضل ، وبأن ابن النصّاب لا بد أن يُعدَم شنقاً . ربما كان سرُّ الوراثة أكثر أسرار الطبيعة تنبيهاً لحبّ البحث فيّ . ما أضمن تأثير الوراثة

المباشرة — من جهة ، وما ألغاهُ من جهة أخرى : تقولون أنهُ لغو بتغلب الوراثة المتقطعة ، أو الرجعى . أو الوراثة البعيدة على الوراثة القريبة ؟ قولوا ما شئتم وأنا أبقى على اعتقادي حتى يتغلب عليهِ اعتقاد خير منهُ . وهو ان المواهب تظلُّ متدفقة في ذلك التيار الرائع تيار الحياة الذي يخترق الاكوان ، ويلقي نثراتٍ منهُ أتمّ بهاءً وسناءً في أفراد دون أفراد بصرف النظر عن صيغة نعتهم الاجتماعي . غير اني أقول كذلك انهُ اذا كان للتربية الشخصية والبيتية تأثير — ويتعذَّر نفي هذا اذ نسدّ بنفيهِ باب التقدّم والتحسن — فكيف بالتربية الوراثية الطويلة ؟ لهذه القاعدة شواذها أيضاً ومن الارستقراطيين من هم دون الخاملين ذلاًّ ومهانة . ولكن هذا الشواذ يثبتُ القاعدة التي هي ان رفيع الحسب يكون عادة مباهياً باسمهِ يطمع في صونهِ ناصعاً ألمعياً ، ويرغب في عظائم الأمور لانهُ مسوق أبداً

بكبرياء الوالد . زد على ذلك انهُ يشبُّ على تربية حسنة ، وذوق مصفى ، ومعاملة جميلة ، وتدبير مرضيّ ، وعلم كثير ، وعادات نبيلة ، وميول سامية . جميع هذه الصفات يقتبسها عن محيطهِ الممتاز بعد أن تكون الوراثة المباشرة وغير المباشرة أثرت فيهِ تأثيرها . فيبتدئ حياتهُ على استعداد تام . أكاد أقول أنهُ يبتدئها حيث ينهيها من لا اسم لهُ . وتمهّد لهُ الحياة سبلاً لا تفتحُ للوضيع ، فكأنّ خدمة المصلحة العامة وخدمة الانسانية أيسر لهُ منها لغيره . لهُ أولوية الشهرة وشهادة المجد يظلُّ بها مكرّماً معززاً أينما ذهب ، بينما الآخر يُضحّى غالباً لانهُ مجهول لا يعرفهُ أحد . فيصرف قواهُ ونشاطهُ في اقناع الناس بوجودهما عندهُ . وتتابع الخيبة والفشل قد يملأ قلبهُ مرارة ويفسدُ خلقهُ فيتحدَّرُ من يأس الى يأس ، ومن انكسار الى انكسار حتى يهوي في لجَّة الارتياب من مقدرتهِ

وكفاءته . فيلقي السلاح ، ويطوي اللواء ، ويسلّم تسليم المغلوب عند ما ينطلقُ الارستقراطي في سبيل السعي والمجد . وادخار هذه الشخصيات الموهوبة بحكم الوراثة انما هو في مصلحة الشعب والانسانية بلا جدال

هو في مصلحة العموم لاسيما اذا كانت المرتبة شبيهة بالارستقراطية الانجليزية التي لها بين ارستقراطيات أوربا مكانة فريدة . هذه بيئة تكونت ببطءٍ متناهٍ لتعادُل السائد والمسود حضارةً في تاريخ هاتيك البلاد . فاندغم النورمانديون بالسكسون على ممر الدهور فتألفت أفضلية ما زالت بتساهلها ورشدها تحفظ امتيازاتها في هذا الجيل العصيب . لانها وهي من أكثر الارستقراطيات محافظة على تقاليدها التي منها تفرُّد الابن البكر بحقوق الوراثة ، فهي في الوقت نفسه حكيمة تعيشُ في أراضيها على مقربة من الفلاحين بعيدة عن التبذير والاستهتار ، تتعاطى الصناعة والتجارة وغير ذلك من الاعمال . وتفتح بابها لكلّ ذي أهلية ومعرفة

وثروة أو خدمة جليلة . وهي ذات أثر في معظم شؤون الدولة تقبلُ الاصلاح . وتنبه الى التعديل الضروري . وقد جاهدت مع الشعب لحمل الملكية على احترام القانون . وتحرير الكاثوليك ، ومنح ارلندا المساواة السياسية . واعطاء اليهود حقوقهم المدنية والسياسية ، وانشاء النظام النيابي وما نحوها . فهي قليلة الاذى ، قليلة الظلم ، وهي مستودع صفات وعادات مستحسنة . لذلك ستبقى زمناً آخر لانها قريبة الى نظام الطبيعة

* * *

أظن أن ذكر نظام الطبيعة ، بعد هذه المرافعة الطويلة في تأييد الارستقراطية ، يشفعُ بي لدى السادة الديموقراطيين ويفرج من عبوسهم في النظر اليّ . لا أقول ان الإشراف أو التفاضل ضروري في الطبيعة فحسبُ ، بل أقول انهُ من الطبيعة ولا يمكن حذفهُ لأنهُ ، كالانخفاض ، جزءٌ من أجزاء الوجود . لاشيء تلاشِ ضده ، وبتلاشاة الضدين يمحي كل شيء . الإشراف

والانخفاض من الوجود نفسه ، إذ ليس سطح الارض كلهُ بالمنبسط ، ولا النجوم كلها من قدر واحد . والذين يطلبون المساواة مستشهدين بالشمس تسكبُ نورها على الصالحين والطالحين ، وبالماء تسبحُ فيهِ جميع الاسماك على الاطلاق ، ينسون ان الاسماك من طبيعتها التنوُّع حجماً وصفةً فمنها المفصفر ومنها القاتم ، ومنها السردين ومنها الحيتان . وينسون ان العبرة ليست بالنور الذي ترسلهُ الشمس بل بالغاية المتنافرة التي يرمي اليها هذا وذاك ، وبكيفية الاستفادة من النور والظلام لبلوغها . فكما ان سطح الارض ينبسط هنا مروجاً وسهولاً ، ويهبط هناك منحدرات وأودية ، ويتشامخ هنالك جبالاً وقمماً ، كذلك للطبيعة البشرية سهول وأودية وقمم

وهاك استدراكاً ينيلني حظوةً في عيون جهابذة الديمقراطية ويصحّ أن يكون متناً لكل بحث في تاريخ الاجتماع . وهو أن الارستقراطية التي احتكرها ذوو الألقاب ابيئتهم ليست إلاَّ جزءًا من الارستقراطية

التامة المتشكّلة من ارستقراطية الفضل (وهي التي يعنيها ارسطو وشيشرون) وارستقراطية الحسب، وارستقراطية العقار . وارستقراطية المال، وارستقراطية النبوغ . ومن المفكرين مثل شوبنهور الفيلسوف الالماني، من لا يعترف بغير الارستقراطية الاخيرة، إذ يرى الناس اثنين : عبقرياً وخاملا . وبينهما هوة يستحيل عبورها لان الطبيعة الخاملة لا تتحوّل طبيعةً عبقريةً . وللعبقري كل الفضل في نظره لانهُ هو مبدع كل جميل وعظيم . ولكن إذا صحّت نظرية شوبنهور من حيث إرجاع الابداع إلى العبقرية فهذا لا ينفي ان للدرجات الاخرى فضلاً متساوياً مع استعدادها في تطوّر العمران . البذرة تُلقَى وهي أصل الشجرة ، ولكن النمو يتطلّب عناصر أخرى . الشرارة أصل النار . ولكن لا بدّ من موادّ يتسعُ بها اللهيب وينتشر . والغريب هو شعور أهل الالقاب والجاه بضؤولةِ ما لديهم فيسعون للحصول على الارستقراطيات الاخرى . وإن لم ينالوها تظاهروا بحيازها . مثال ذلك رغبة الملوك والعظماء

في الاشتهار بالعلوم والفنون وضروب الانشاء . ومن لا يذكر ما جرى للويس الرابع عشر مع بوالو النقاد الفرنسوي الذي عرض عليهِ الملك يوماً قصيدةً من نظمه كأنهُ يلتمس مصادقتهُ واستحسانهُ ليفاخر بهما أمامَ الاعوان . فكان جواب بوالو : « مولاي قادر على كل شيءٍ . أراد نظم أبيات سقيمة فنجح كلَّ النجاح » . وقد يخلط الناس فيحسبون أن من توفرت لهُ ارستقراطية توفر لهُ غيرها . كقول الشاعر عن ارستقراطية المال :

فهي الكلام لمن أراد فصاحةً وهي السلاح لمن أراد قتالا

نقبل هذه النظرية من شاعر فقير بلا ريب . لان الواقع أن المال يبالغ في إظهار العيّ ويزيد الجبان خوفاً وجبناً . ولا يكون « الكلام » إلاَّ لمن فُطر على الفصاحة . ولا « السلاح » إلا في يد الفارس المقدام . ولا هو الارتقاء إلا لمن خلق ليرتقي متسلقاً جبال الصعوبة فيصل إلى ذروة التفوُّق . أما القول بالحظ والنصيب فصائبٌ إلى حدّ ما . بيد أنه من دلائل العجز أن يظل المرء مكتوف اليدين في

انتظار «الظروف» لتتحرك. «الظروف» تخلق الشخصيات الضرورية لها. وتكوّن الارستقراطيات الفردية والقومية المطلوبة. وتنبه النبوغ وتعزّزهُ. ولكنها في الغالب تختار ممثّليها وأبطالها بين العاملين المتحفزين لا بين الكسالى الخاملين. وإن اختارت خاملا سهواً بدّد عطاياها هباءً وظلّ الحظّ فيهِ على نحو قول العامة «رمح يغرز في النخالة»

قال شاعر عربي آخر «كل من سار على الدرب وصل». وهـذا الآخر يشفع في نظريته أنها منظومة. كلاّ، لا يصلُ كلُّ من سار على الدرب لان المدعوين كثير أما المختارون فقليل. ويقال أن فضل المجاهدين في انخذالهم أعظم، ولا بأس بنشر هـذه الكلمة للتشجيع لا سيما وان نتيجة الجهاد لا تُعرَف قبل البلوغ إليها. ولكننا نعلم أن الحياة لا تكرم وتُكبر إلاَّ من كافح فغلَب. أما الآخرون الذين ينهكهم الجهاد فيقعون صرعى في طول السبل وعرضها. فتلقي عليهم نظرة الاشفاق ثم تنساهم لان وقت البطولة ضيّق لا يسع التحسُّر على

الفريسة والضحية . وستظل الارستقراطية ، ارستقراطية الجماعـة وارستقراطية الفرد ، مادامت الطبيعة ولو تحوّلت منها الانواع وتغيرت المظاهر وتعدَّدت الاسماء . سيظل التفوّق موجوداً ما بقي بين البشر جماعات وأفراد يسيرون بخطوات الجبابرة نحو قمم الوجود فيتجاوزون على طور القدرة والمجد فوق صياح الصائحين وتجديف المجدّفين . سيوجد أبداً هؤلاء ، ومنهم من ينعكس خيال ارستقراطيتهم في الاجيال الآتية ويمتدّ حتى أطراف الدهور القصية ، مهما تقلبت الثورات والنظم والعمرانات . هذا إذا كانت الارستقراطية من الطراز « الاصلح » وهو الطراز الذى قرَّرت له الطبيعة الفوز أولا وآخراً

٣
العبودية والرق

من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض : تجعل الاكمة الجرداء قرب البحر الزاخر . وخضرة الخمائل وخصب الواحات وراء رمال الصحارى وقحط القفار . حيال الذروة الارستقراطية يزينها تاج الملكية تحفرُ البطاح لسيل العبودية الجرّاف حيثُ تتزيَّفُ السجايا وتتلاشى المكرمات . ما أقامت ارتفاعاً إلا أوسعت تخومهُ تجويفاً ، وما جادت بنابهٍ إلاّ بات بمعتوهٍ ، ولا سلّمت بوليدٍ إلاّ ودّعت بصريع

ألا إنما الحياة غنية بالمال والذكاءِ والكرم والصلاح والحب والجمال والفخار . على أن في كفتها الاخرى ما يعادل الاولى من شقاءٍ وفقر وخمولٍ وقبح وكرهٍ وانحطاط. كأنها مرغمةٌ على حفظ النظام في توازنها ، إذا هي أسرفت

في نقطة تعقّبت الاسراف بالاقتصاد في ما يحاذيها . فحيث يمتدُّ الرخاء تنتشر التعاسةُ . وحيث يكثر الخير يقلُّ ، وحيث يتغلب قومٌ ينحدر قومٌ . هنا القصور والصروح والاواوين وهناك الاكواخ والخصاص والزرائب . حتى الصحة ذاتها قتلٌ متتابع ، وكأنّ نَفَس الطفل البريء معملُ هلاكٍ يفتكُ بمكروبات لو انتشرت في جماعة لأودت بهم

ترى هل امتداد الكون المهيع مسافة محدودةٌ ان نحن رأيناها لا تُحدّ فلقصرِ النظر ، وقواه كميّةٌ معدودةٌ ان نحن زعمناها لا تُعَدُّ فلضيق الادراك : هذا سؤال يخرجنا من الاجتماع والتاريخ لتدخلنا محاولة الجواب عنه في الفلسفة واللاهوت ، وما نحن منه الاّ في دائرة تبتديءُ عندها الابحاث حيث تنتهي

*
* *

كتاب « مانو » هو أحد كتب الهند المقدسة وقد حوى شرح مذهب البراهمة وتاريخ مدنية الآريين منذ

نشأتها. فجاء فيه أن أصل العبيد سبعة : أسير الحرب ، ومعدم رضخ لمن يكفل معاشه . وابن العبدة المولود في بيت المولى ، والفرد مهدى هدية أو مبيعاً بيعاً ، والمنتقل بالارث من الوالد الى الولد . والمستعبَد عقوبة على جناية ارتكبها . والمستعبَد لعجزهِ عن تأدية دين أو ضريبة أو غرامة . وسواء ألمَّ هذا الاحصاء بكل الاصول أو أغفل بعضها فالعبودية قديمة كالحرب ، والحرب من خواصّ الخليقة . لقد حاذت طبقة العبيد طبقة الاحرارُ منذ فجر العمران وكأنها في تلك المحاذاة تقول :

همُ جيرة الاحياء أمَّا جوارهم فدانٍ . وأما الملتقى فبعيد

وكيف « يلتقي » اثنان يمتلك أحدهما الآخر امتلاكاً لايقصر على تضييق الحرية الشخصية شأن الرجل مع المرأة والمؤدِّب مع التلميذ ، وانما هو حذفها ليصير العبد آلة خضوع وعمل ، تحصى من متاع المالك مع المواشي وما شاكلها

مأساة دهرية يتألَّم لذكرها القلب الشفيق ، بيد أن

المؤرخ المفكر يراها فجراً مصحصحاً في ليل الهمجية ، وأول بادرة من بوادر الرفق من حيث إدراك وجوب الاحتفاظ بحياة المغلوب والحرص عليها . هي دليل التقدم وأن نسبها هربرت سبنسر الى الشبع بتقريره أن أول العبيد هم أسرى الحرب . وقد جرت العادة بأن يأ كلهم الغالب في ولائم النصر . وانهُ عند ما كثر عددهم أُجِّل قتل بعضهم للتلذذ بلحمانهم المشوية في ولمية آتية ليصير النصر الواحد نصرين. فاستخدموهم خلال هذه الفترة فانتبهوا للحال الى أن حياة الاسير أنفع للغالب من موته

وعلى كلٍّ فان الابقاء على الاسرى يظلُّ كبير الاهمية لاثباته ان النوع ، حتى في تلك الهمجيَّة القصوى ، ذو نظرة صائبة وارادة قوية تمكّنهُ من ممارسة الابيقورية قبل ولادة اسلاف ابيقورس ، فيضحي اللذة الصغيرة للحصول على لذة أعظم . . . . وأهميته الكبرى في ايجاد العبودية وهي الفارق الاول للدرجات الاجتماعية ، والمرتبة الاولى لتقسيم العمل الذي

قامت عليه دعائم الحضارة . فلولا اناطة الاعمال الدنيا بأولئك القوم ماتفرّغ المحارب لبسط سلطانهِ ، ولا أبدع أعوانهُ ماتستلزمهُ فنون الحرب وتؤدي اليـه من عمل زراعيّ وصناعي واقتصادي وسياسي . ولولا ذلك التقسيم وهذا الابداع ما ظهرت الحقوق والواجبات . ولا كانت النُظُم ، ولا توصَّل البشر الى تخزين قوة وحذق يستحيلُ وجود مثلها عند العشائر الاولى

لقد عرفت العبودية شعوبُ الشرق قاطبةً من الهند والصين الى مصر ففينيقية فآشور ، فالفرس الذين ضموا تحت لوائهم أُمم أسيا الغربية . فاختبروا جميع صنوف العبودية في الحقول والمنازل والايوانات ، منـذ أيام بابل الى عهد اليونان . وحالة العبيد متماثلة في كل مكان يتصرّفُ السيد بهم بيعاً وحياة وتعذيباً وموتاً . انما يختلف هـذا التصرّف باختلاف فطرة الشعوب واستعدادها . فبينما حالتهـم في الهند على أسوإ مايكون اذا بهم في الصين على هناءٍ نسبيّ لا يُنظَر اليهم كأشياء أو آلات . بل كأُناس يحميهم

القانون جاعلا حياتهم في مأمن من الخطر وأعضاءهم سالمة من التشويه . وليس في تاريخهم ثورة واحدة على تجمّع مئات الالوف منهم حتى اضطرت الحكومة غير مرة الى اعتاقهم بالجملة ، طغمة بعد طغمة ، لتفسح مكاناً للمستجدين من أسرى الحروب والجناة ، والعصاة الثائرين على الحكم الاعلى . ومع انهم ملك الامة المشاع فهم يعيشون في العائلة كوضيع أفرادها ، ولكلّ عبد أن يُعتَق بعد سنّ السبعين ولكن كثيرين كانوا يأبون الحرية لتعلّقهم بمواليهم . أما في منشوريا فلم يُستَعملوا إلاّ للزينة والابهة في الاعياد القومية والاحتفالات الرسمية . ثم تدرجت العبودية الى الرق بالعمل الحرّ ، فكان التطور الاجتماعي في الصين غير متخلّف عنه في الغرب

أتصدّق أن اليهود « شعب الله الخاص » كانوا يمتلكون بعضهم بعضاً ؟ إن الشريعة تبيح لهم استعباد أخيهم اليهودي ستة أعوام ، أما غير اليهودي فعبدٌ حتى الموت . ولا يُفهَم ما ورد في انجيل يوحنا قولهم للمسيح

« نحن لم نستعبد لأحد قط » وهم خاضعون يومذاك للاحتلال الروماني ، وقد بيعوا في أسواق أورشليم ، واستعبد سلمنصر عشرة أسباط منهم ، وظلّ سبطان آخران في قيود أهل بابل سبعين عاماً . وقد جاهروا في كتاباتهم بأنهم استُعبدوا سبع مرات في أرض الميعاد . ومن يجهل بيع عيسو بكوريته ليعقوب بأكلة عدس ، أي بيع كل حقوقه وقبول العبودية لذراريه ؛ ولكنّ العرب الذين ينتسبون الى عيسو كادوا يمحون بسيادتهم وعظمتهم هفوة السلف الجائع . وقد باع بنو يعقوب أخاهم يوسف للتجار وباعهُ هؤلاء في مصر فخدمها في السنين الجوائح ، وجرّ اليها ذووهُ فانتهى بهم الامر الى الرقّ . ولم يكن ليطلق سراحهم لولا الضربات العشر الذائعة الصيت . على أن العبودية عندهم أخفّ منها عند غيرهم . ترى بين العبد والمولى تبادل الامانة والرعاية فيحفظان السبت سويًّا ، وللعبد أن يتزوج وينشئ عائلة وحريته ميسورة بالمال . ان قتلهُ مولاهُ يُقتَل ، وان جرحهُ

أعتقهُ ، فاذا انقضت السنة السادسة ورفض ان يتحرر قُدّم الى قضاة الشعب فثقبوا اذنه عند باب سيده . ولقد كان ثقب الآذان رمزاً للعبودية عند شعوب كثيرة . أفتعجبن بعد هذا ياسيداتي ، إذا أنا أَذريت ما يشعُّ في آذانكنَّ من فرائد الدرّ والجوهر وما تهدّل منها من الحجار الكريمة وغير الكريمة . لأُحدّق في ذلك الثقب الذي يشوّه أذني أنا الأُخرى ، وان كفيتُه عار الاقراط إني لأتأمله عندكنّ وألمسهُ فيّ مبتسمة خجلى

* * *

حمل الفينيقيون نظام العبودية مع ماحملوه من الانظمة والعادات الى اليونان فجرى هؤلاء عليه وكان العبيد عندهم أنواعاً : نساء لخدمة البيت . ورجالا للفلاحة والزراعة وخدمة الجيش وسائر الاعمال الخشنة ، وصبية متأنقين يكرمون الضيوف ويعدّون المركبات ويرافقون ابن مولاهم في تنزهه وجولانهِ ويشاطرونهُ دروسهُ والعابهُ ،

كأنهم المماليك الصغار في بعض البيوت الشرقية . عوملوا
برفق فأحبوا مواليهم ان غاب أحدهم يوماً تألموا لفراقه
وانتظروه باكين ، وان عاد اقبلوا يلثمون يديه ووجهه
فرحين . واذا اكتسبوا ثقته بحسن سلوكهم ورجاحة
عقلهم أطلق يدهم في ماله وشؤونه وأنالهم عنده مكانة .
قد يكون سبب ذلك إن اليونان كانوا يقدرون الاعمال
اليدوية . حتى ان هوميرس ذكر العمال على مقربة من
الابطال وقال ان الحدادين والمهندسين والنجارين كانوا
يُدعون مع الاطباء والعرافين والشعراء الى ضيافة الملوك .
وكان أبناء الاسيرات أحراراً مثل تويسر المولود من أسيرة
لم يكن من فرقٍ بينهُ وبين أخيه أجاكس (المولود من
حرّة) ابن تلامون ملك أجين . ولا عجب والملوك
والملكات كل يوم عرضة للاسر والاستعباد . مقدورٌ لم
ينجُ منهُ ولا الآلهة إذ ان البشر أسروا أبولون ونبطون
وڤولكان ومارس . فامتثل هؤلاء الآلهة وخدموا صامتين
حتى رفقت بهم يدُ القَدَر

أما الاسبارطيون فطبعوا العبودية بطابع شدتهم . العبيد هنا ملك الجمهور يلبسون جلود الحيوانات ويُسخَّرون لباهظ الاعمال بصرامة عسكرية ، ويُسكَرون إلى درجة العربدة وفقد الشعور ليرى الاحرار كم يحطُّ الشراب من قدر الشارب فيعرضون عن الخمر ويأنفونها . نحن تضحكنا حكاية جحا الذي أرسل ابنه يستقي ماءً فأوصاهُ أن لا يكسر الجرة في الطريق وضربهُ ضرباً مبرحاً . فاعترض الجار لان الولد عوقب قبل أن يغادر البيت وقبل أن يرتكب الذنب . فأجاب جحا « وما نفع الضرب بعد كسر الجرة ؟ » كذلك اعتاد أهل اسبارطة ضرب العبيد ضرباً عاماً لا لاثم جنوا وإنما ليذكروا دواماً أنهم عبيد أقلّ ما يتهددهم السياط . ويحظر عليهم حتى القوة البدنية فيقتلون القوي منهم ، أو يؤدي مولاهُ ضريبة لانهُ لم يوقف نموَّهُ . وكثرة الانتصارات والفتوحات مورد عبودية متدفّق كان يضاعف عددهم على عدد الموالي سبعاً أحياناً فيفتَكُ بهم بأساليب مختلفة تخلُّصاً من شرهم . وروى ثوسديدس أعظم

مؤرخي اليونان ، أن الموالي سألوا عبيدهم مرة عن الالفين الاشد بينهم بأساً والاقوى شكيمة ليعتقوهم، فقام العبيد بانتخاب ذينك الالفين وتناولهم السادة فزاروا بهم الهياكل ثم اختفوا ولم يعد يظهر لهم من أثر

وكم من تحالف للعبيد مع أعداء اسبارطة وكم من ثورة جعلت السادة في خطر مقيم . وقد تظاظوا مرة وكان تهديدهم مخيفاً فاضطر الاحرار الى طلب الهدنة والمساومة مع الزعيم دريماكس . ثم عادوا فاغتالوه بعد عقد الاتفاق . فاستأنف الثوار هياجهم وأقاموا لهُ مذبحاً جعلوا عليه هذه الكلمات « الى البطل المحسن » . ويقال أن هيكل أفسس يعود تشييده إلى اتفاق ، عقب ثورة ، بين الموالي والعبيد . بيد أن تلك القلاقل والاضطرابات وتدخُّل العبيد في جميع الاعمال بالتدريج قضت على الجمهوريات اليونانية وهيَّأت البلاد للفتح الروماني

وما كان أشبه حالتهم عند الرومان بها عند الاسبارطيين فعمدوا الى العصيان والحروب . وكادت حرب اسبارطقس

تؤدي إلى خراب روما لولا قتل العبد الزعيم الذي قضى مجدفاً على اسم روما المقوتة

جاء دور التحرير تحت تأثير الفلاسفة فأخـذ العبيد يتعاطون جميع أعمال التجارة ، وتيسَّرت لهم المناصب السياسية فارتفع بعضهم ارتفاعاً عظيماً مثل نارشيسس مستشار الامبراطور كاوديس الذي حرَّض على قتل الامبراطورة مسالينا . وشتهر آخرون بالشعر والفلسفة مثل ترانتسيوس الشاعر الهزلي ، والشاعر هوراتسيو ، وابكتتس الفيلسوف الرواقي وغيرهم . وكانت كلما علَت مكانة العبيد هبطت الدرجات العليا إذ ان أولئك لم يكونوا يطلبون المساواة للمساواة وإنما يرمون إليها ليصيروا هم سادة ويمسي الموالي لهم عبيداً

والمدهش في كل هذا أن الفلاسفة لم يقبّحوا العبودية ولم ينكروها بل أقروها مع أن منهم من ذاق مرارتها كديوجنس الكلبي، وابكتتس السابق ذكرهُ ، وأفلاطون الذي ظلَّ أسيراً في مصر وصقلية حتى فداهُ أحد أصدقائهِ .

وكل ما امتاز به أفلاطون هذا أنه لم يضرب عبدَهُ بيده لأن الفلسفة والشعر رققا منه النفس واطفأ الشعور خملاه على أن يوكل إلى سواه تنفيذ العقوبة في مملوكه :

*
* *

يوصلنا هبوط روما إلى مطلع القرون الوسطى التي تكيَّفت خلالها الطبقة السفلى تكيُّفاً خاصّاً . لم تلغَ العبودية بل بالعكس بقيت منتشرة في البلدان المختلفة ولها في ليون بفرنسا ، وفي روما بايطاليا ، أسواق عامرة بالتجارة الآدمية من السود والبيض . ومرّت العصور . فاكتشف كولمبس القارة الامريكية في أواخر القرن الخامس عشر ، ولم يُهمَل هذا المرفق التجاري بل كانت لهُ أهمّيته ونظَّم بعدئذٍ الاسبان والبرتغاليون المتاجرة ببني الانسان تنظيماً دقيقاً بين العالمين

لم تلغَ العبودية انما امتازت القرون الوسطى بشيوع الرق الملازم لنظام الاقطاع في أنحاء أوربا . لقـد تسايرت

العبودية (Slavery, esclavage) والرق[1] (Serfdom, servage)

في جميع فصول التاريخ فاختلط معناهما والتبسا في اللغات المختلفة وحسبهما الناس مترادفين لمعنى واحد . أما الفرق بينهما فهو ان العبد يملكهُ سيّدهُ وهو لا يملك شيئاً . وأما الرقيق فملك سيدٍ يملّكهُ أرضاً مقابل مايفرضهُ عليهِ من ضريبةٍ وخدمةٍ وطاعةٍ قصوى . العبد يُنزعُ من بلدهِ وأهلهِ ويتبعُ سيده المطلق . أما الرقيق فيظلُّ في ديار جدودهِ وسيادة المولى تحـدّدها العادة والمصلحة . اذ ما نفع أرض لا يد تعملُ فيها ؟ فمن مصلحة الشريف أن تعمر الارض وتنتج لهُ الخيرات • ومن مصلحة الرقيق

---

(١) لم أجد حتى الآن كلمة عربية لهـذا النوع من الرق أو الاستخدام ولعل سبب ذلك انه لا يكون الا فى البلدان الزراعية . وقد كان شائعاً فى بلاد السودان ويطلق السودانيون عليه اسم الرق ولكنهم يطلقون اسم الرقيق أيضاً على العبد المشترى . وكان الملاك فى لبنان من الامراء والمشايخ ورؤساء الاديرة يسمون الفلاحـين المقيمين فى أملاكهم يعملون فيها شركاء أو مرابعين . وسموا فى قصة معاوية مع ابن الزبير عبيداً ولعلهم كانوا عبيداً بالفعل .

أن يشتغل في أرض يحبها وله من نتاجها ما يكفي — ولو بالاجهاد — لإعالة بيته وأولاده . فضلا عن أن الاغارات الخارجية وقلة الامن في تلك الايام كانت تقضي بالانتماء الى سيد عظيم والاحتماء بحماه . والرق في ذاته أنواع . وظل يخف بالتدريج خلال الزمن حتى فقد في فرنسا صفته السياسية وصار مرجع الأمر الى الملك ولم يبق منه للاشراف غير الميزة الاجتماعية . ولكنهم ظلوا منطلقين في الظلم والاجحاف فاهتاج الشعب غير مرة وهم يقمعون الهياج بقسوة متناهية . ثم زاد واتسع في المرة الاخيرة ورأى العالم الطبقات الاجتماعية تمتزج وتتساوى على دوي سقوط العروش ، وانهيار جدران البستيل ، وقصل أعناق الملوك في ذلك الزلزال الهائل المدعو بالثورة الفرنساوية

قضت الثورة على الاسترقاق الذي كان أُلغي قبلئذٍ في انجلترا وظل يحذف في دولة بعد دولة . وفي مستعمرة تلو مستعمرة أبان القرن المنصرم . واستفادت أمريكا بدروس العالم القديم واختبارها الشخصي . فالغته

الولايات المتحدة سنة ١٨٦٥ والبرازيل سنة ١٨٨٨ . وهتف الكتاب والخطباء ان لطخة العار غُسلت عن جبهة الانسانية بفضل الثورة الفرنساوية وهمة مفكّري انجلترا

يخيل الينا نحن أبناء اليوم أن امتلاك الانسان للانسان من خصائص الزمن الخرافي ، مع إننا نعلم ان النفوس كانت تحصى في عقود البيع بلبنان مع الغنم والخيل وآلات الفلاحة منذ عهد قريب . وان دولة المماليك المؤلفة من عبيد الامس ارتفعت الى أوج الحكم فكان لها جيش من العبيد الغرباء . ثم جاء نابليون الشرق محمد علي باشا فغلبها على أمرها ، ونظم جيشاً كبيراً منهُ فرقة أو فرق بأكملها من السود النوبيين . وكادت المتاجرة بزنوج أفريقية تشوّه جيلنا وهي من أفظع أنواع الاستعباد إذ لا أسر ، ولا دين ، ولا جريمة تبرّرها ، وما هي غير اقتناص البشر للبشر طمعاً بالمال . لولا ان مطاردتها واكتساحها من أشرف ما تفاخر بهِ بريطانيا العظمى

ترى ألم يكن للنصرانية والاسلام من أثر في القلوب

لتحملها على الرحمة والعطف ؛ لاشك في تأثير الدين أياً كان . وإذا أُحصيت العوامل الكبرى كان الدين في مقدمتها لتكييف النفوس . وقد انتقى السيد المسيح تلاميذهُ من الخاملين ومضى ينادى بالمساواة والغفران وحبّ الاعداء لان الجميع أبناء الله يدعون . وعزّز مذهبهُ العظيم بمثَلِهِ في حياتهِ الطاهرة . وصار النصارى يردّدون هذا النداء الجميل في الصلوات والاحتفالات ففعل فعلهُ وملأ القلوب أملاً وتعزيةً . على أن الدين المسيحي أقرب الى النظريات وعلى نقيضهِ الاسلام فانهُ نظريٌ وعمليٌ معاً . وجد العبودية عند شعوب سبقتهُ فاقتبلها ولكنهُ لطفّها أيما تلطيف . وعلى مقربة من تعاليمهِ العالية ونصائحه الحكيمة أوصى باليتيم والضعيف والرقيق وكان الطائع الاول النبيّ العربي ذاتهُ الذي بكى عبدهُ الميت كما يبكي الكريم صديقاً عزيزاً . فكانت حالة العبد في دين محمد من أحسن حالات أمثاله . اما الإعتاق والدعوة اليهِ فمن أمجد صفحات تاريخ الاسلام

يرمز المصوّرون إلى العبودية برسم رجل بائس رسف في قيوده ولو أنصفوا ما كان غير المرأة رمزاً . الرجل عبدٌ مرة وهي عبدة مرات . قيمة الرجل في استقلالهِ النفسي وطموحهِ إلى بعيد الغايات . والمرأة ان هي أبدت ميلاً إلى الانعتاق من الاوهام القديمة والتحرير من العادات المتحجِّرة نُظر اليها كفردٍ شاذ أو كخيال في دوائر الرؤيا . ذلك لانهم اعتادوا استعبادها ليس بالجور والضغط والتعذيب.فقط بل باللطف والتدليل والتحبُّب . والاّ فماذا تعني هذه الحلى وهذه الجواهر ؟ بل ماذا يعني تغني الشعراء بجمال الوجه وملاحة القوام ؟ النساء المسكينات يتهن دلالاً ان يكنّ محبوبات لجمالهنّ ، ولو تفكرن قليلاً لأدركن ما في ذلك من معنى التحقير لجميع قواهن ، حتى الانثوية نفسها ، ولكفى أن يتقدم اليهنّ رجل بامتداح حسنهنّ وحدهُ ليرفضنهُ زوجاً . وهؤلاء هن اللائي بعد أن يشترين بالمال والحلى والتملّق — وقد عنى سكوتهنّ قبول نير العبودية والرضى عنهُ — ينبرين فجأة مطالبات

بحقوقهنّ مناديات بالاستقلال والتحرير . وانا التي أكتب هذا يشوك الآن ساعدي سوارٌ دار حوله فانظر اليه واضحك ولا أزيحهُ عني . لقد توارثت النساء حمل القيود في صورة الحلي حتى عشقنها ، انْ هي لم تثقل حركتهنّ لغرض ما وضعن مكانها ما يشير اليها لغير سبب !

تشكون من زواج هذا العصر وتستصغرون الذي يتزوّج البائنة ويقبل صاحبتها معها بدلاً من ان يتزوج المرأة ويقبل معها بائنتها . ولكن أتظنونهُ أفظع من زواج يؤدّي فيه الرجلُ مهراً ؟ إذا ساء شراء المرأة زوجها فكيف يحسن ابتياع الرجل زوجتهُ ؟ الزواج عقد اجتماعي يأتي فيه الشريكان برأس مال حسيّ ومعنوي : المال والكفاءة الشخصية : فالمال يجعل المرأة مثيلة الرجل ، والكفاءة الشخصية تؤهلها لان تكون زوجة معتبرة وأمّاً محبوبة . تزعمون ، أنتم النظريين المتطرفين ، ان صفاتها تكفي لاسعاد رجل نشيط يتكل على جدّه واجتهاده ؟ ألا فادخلوا هيكل أسرار العائلة وقفوا على

ماهناك من نكد وويلات أصلها فقر عائلة المرأة : لا أنكر ان الكفاءة الشخصية تفوق المال أهمية وان المال لايدوم الاَّ حيث تكون الكفاءة ، ولكن أواثقون أنتم من ان كلَّ امرأة تنصف زوجها ولا تختلس نتاج جهوده أو بعضهُ ؟ أيُّ النفس يخاف ان تستعبدهُ المرأة الغنية ، فهل هو للفقيرة أقلُّ استعباداً ؟ وعلى كلٍّ فعبيد اليوم كعبيد الامس ليس أمامهم للتحرير من سبيل غير ذينك السبيلين القديمين : المال والكفاءة الشخصية

* * *

هذه هي الخطوط الكبرى في خريطة العبودية التاريخية ، فرغتُ من تعدادها بانشراح من نفذ من تحت جبل ووقف يتمتع بمحاسن الرياض

لقد اتفقوا على ان العبودية كانت وانقضت . وأظنني كتبتُ منذ هنيهة ان عصرنا يفخر بالغاء متاجرة الانسان بالانسان . وقد استجمعتُ فكري للمرة الاخيرة قبل أن القي بالقلم جانباً فتماملت في حافظتي

جميع معاني الأسى ورأيتُ أشباح الذلّ متجمهرةً في رحاب خيالي . كشّرت عن أنيابها تهددني ومدّت بمخالبها نحوي لتفترسني . جيش عرمرم من أرواح العبودية والرق أخذ يصفق بأجنحتهِ السوداء صارخاً « نحن أحياء نتألم فكيف تذكرين الموتى وتنسيننا ؟ » فدنوت من جماعة وقلتُ « من أنتم ؟ » فصاحوا « نحن نزلاء الليمانات وضحايا الاشغال الشاقة . حجار الصوان تحني ظهورنا وأزيز السياط تمزق أجسامنا . ما نحن الا عبيد أسبارطة » . قلت « وكيف يكفي الاجماع أبناءهُ شرّكم ؟ لقد سرتم في وسطهِ فكانت الجرائم منكم بعداد الخطوات » فتنهدوا وقالوا وتنهدهم وكلامهم مقذوفات براكين « ما نحن إلاَّ عبيد إسبارطة »

وسرت نحو جمع آخر انحنى يشتغل والعرق يقطر من ذرات وجههِ فصرخ « نحن الشعوب المغلوبة وما غرامة الحرب الاّ رقّ القرون الوسطى » فقلت « وهل من وسيلة أخرى ليستعيض الظافرون عما خسروهُ من

مال ورجال ، » فهزوا أكتافهم وانحنوا على الارض متظلّمين « ماهذا إلا رق القرون الوسطى »

وتحولتُ الى جهة أخرى ، والى أخرى والى أخرى ، وأنّى توجهتُ لاقيت أقواماً ينبعث من صدورها التظلم والعويل وتخيم فوقها الاجنحة السوداء . رجال ونساء ، شيوخ وأطفال ، مثرون ومعدمون ، عبيد الوراثة ، وعبيد العاهات ، وعبيد الامراض ، وعبيد الجهل ، وعبيد الاوهام ، وعبيد الطمع ، وعبيد الحاجة ، وعبيد الحياء الانساني ، وعبيد الغرور ، وعبيد الكذب ، وعبيد الحسد وعبيد الاهل ، وعبيد الابناء ، وعبيد الغرباء ، يزحفون جميعاً من كل ناحية كالجحافل الجرّارة وهدير شكواهم كهدير العباب المتلاطم . فصرخت جزعاً « من أنتم ، من أنتم ؟ » والعبيد ، جميع العبيد ، عبيد الماضي والحاضر والمستقبل ، أجابوا بحرق رهيب « نحن العبودية الدائمة ! » قلت « كلا ، كلا ! لقد أُلغيت العبودية وأنتم أحرار . ارفعوا أيديكم لا سلاسل فيها ، حرّكوا أقدامكم لا قيود

تثقلها!» فقالوا «السلاسل والقيود أقل رموز العبودية هولاء. القيود في دمائنا وأهلنا وأوطاننا. القيود في رغباتنا وحاجاتنا. القيود في بشريتنا» فصرخت بملء صوتي «أقول لكم أنتم أحرار ولا عبودية في القرن العشرين!» فقالوا «اذا محيت من العبودية صورة رسمت أخرى لأن أصل العبودية باق على كر الدهور. نحن العبودية الدائمة. نحن أودية الحياة المجوّفة عند أقدام الرواسي»

واختفت الجماهير في لحظة فوجدتني مقلبة صحائف هذا الفصل وقد وقفتُ أقرأ كلمات الاستهلال «من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض... ما أقامت ارتفاعاً الا أوسعت تخومه تجويفاً...»

٤

الديمقراطية

استعرضْ ماشئتَ من فصول التاريخ الطبيعي تجدْ بين الحيوان والحيوان مصارعة مطَّردة ، وبين النبات والنبات مقاتلةً سرية أو علنية بلا تباطؤ ولا مهادنة • ومثلها في تاريخ علم طبقات الارض : فهنا الصخور والمعادن تتزايد وتتناقصُ ، وهناك تراجعت الامواجُ في محيطها فاستحالت أرضٌ غارت تحت تقلّب الاواذيّ مدينةً آهلة • ومثلها في تاريخ الفلك حيث تتكوَّنُ عوالم وتزول عوالم • وليس التاريخ البشريُّ ليختلف عن تلك التواريخ • غير أن الانسان يمتاز على سائر الكائنات بالعقل والغريزة الاجتماعية ، فهو يطبع كلَّ ما يقتحمُ من خطر ، ويُشهر من حرب ، ويركب من هول بطابع هاتين الميزتين. ولمَّا كان تنازع القوى الطبيعية ينتهي دواماً بصعود

الغالب وهبوط المغلوب كانت نُظُم الانسان ومبادئه وأحزابه أبداً في ارتفاع وانخفاض

لم يهتدِ زعماء الاصلاح إلى أنظمة سياسية غير الثلاثة التي ذكرها ارسطو وهي : الملكية أو حكومة الفرد ، والارستقراطية أو حكومة الاماثل ، والديمقراطية أو حكومة الشعب . ولئن دانت المدنية المتأخّرة بالديمقراطية فان جلّ المدنيات المتقدمة — إن لم يكن كلُّها — نما وترعرع ثم توارى في حضن الملكية . ألِأَن الشعب الرازِح تحت أثقال العبودية كان في غيابات جهلهِ مدفوناً ؟ ألِأَن تلك المدنيات شرقية ، وشعوب المنطقة الحارَّة أقرب إلى الملكية لميلهم الى عدم التفكر وتثاقلهم عن حمل المسؤولية — كما يزعم المؤرخون ؟ ألِأَن الأُمة في دورها الابتدائي تحتاج الى سيد احتياج الطفل والقاصر الى معلم ومرشد ؟ ليس البتُّ بالامر الميسور . وإنما ما يتحتَّم البتّ فيه ، بعد نظرة سريعة في المدنيَّات البعيدة ،

هو أن تلك الشعوب لم تكن عقيمة في ظلّ الملكية بل أنتجت ما لا نزال نستفيد منه حتى في هذه العصور — عصور الابداع المتواصل

فمدنيّة مصر العظيمة تكونت في عهد ستٍ وعشرين أسرة مالكة يوم كان فرعون سيداً مطلقاً يسنّ القوانين وينفّذها ، ويسهر على الراحة والامن ، ويسعى في تنظيم البلاد وتجميلها ، وإليه مرجع الامور الدينية والمدنية جميعاً . فأسفرت تلك الحضارة السحيقة عما ما زلنا نعجب به ونستوحيه من بدائع هندسية ، وفنون إدارية ، وفلسفة روحانية

أما الحضارة الكلدانية الأشورية فكانت عظيمة في هندستها عظمتها في علمها . لأنها مع تلك الاسوار الضخمة ، والابنية الفخمة ، والحدائق المعلّقة المحسوبة من العجائب السبع في القدم — جاءت بفنون الحرب وما يتبعها من تدريب الجيوش ، وحفر الخنادق ، وخدّ الاراضي ، واختراع مركبات الهجوم والدفاع . وأساليب التدمير النظامي ،

وإعدام الاسرى، ونقل المعدات والاسلحة . هذا من جهة .
وكانت عاكفة من جهة أخرى على التمرين العقلي، والبحث الفكري فوضعت القواعد لعلوم الحساب والفلك، وأوجدت المكاييل والمقاييس والموازين الاولى، وميزت بين السيارات والثوابت، وأحصت كسوفات الشمس وخسوفات القمر، وعينت دائرة البروج مسمية كلاً من علاماتها باسمها، ووقتت أجزاء السنة، واخترعت الساعة الشمسية . وهي التي وضعت أصول التنجيم، وكشف طوالع السعد والنحس، وتركيب التمازيم والتعاويذ والطلاسم والتمائم والحمائل وعقاقير الغرام

أما اليهود فمعروف مجدهم الحربي في عهد داؤد ومجدهم التجاري في عهد سليمان، فضلا عن أنهم حبوا العالم بكتاب التوراة الجليل

وأحدث الفينيقيون فنّ سلك الابحر وما يجرّ إليه من استعمار، وتجارة دولية، وصناعة تمدّ تلك التجارة . فأنشأوا المصارف في الانحاء المختلفة وأذاعوا مع مدنيتهم

مدنية كل بلاد يرودونها ، ونشروا مع مصنوعاتهم الابجدية التي اختزلوها من الهيرغليفية ، وأساليب المعاملة المالية والاقتصادية ، وعلم مسك الدفاتر

ولما قام الفرس يبسطون شوكتهم على العالم الشرقي ويخضعون الشعوب المغلوبة لصولجان ملكهم اقتبسوا عن الاقوام زبدة حضاراتهم فجمعوا بين الادارة المصرية ، والهندسية الاشورية ، والعلوم الكلدانية ، والبحرية الفينيقية متوسّعين في التصرف والتكييف ليطبعوا تلك المدنية المختلطة بطابع فارسي . وقد بدأ بهم تأثير الآريين — وهم من أصل آري — في التاريخ المعروف وأخص ما جاؤوا به حكمة زرداشت القائلة بحربٍ بين عنصر الخير ارمزد ، وعنصر الشر اريهمان — حرب تبقى الى منتهى الزمن حيث يتغلّبُ عنصر الخير فيعمُّ النور والحقيقة

كذلك في الشرق الاقصى كالصين مثلاً حيث شيد السورُ الأكبر قبل المسيح بأربعة قرون ، وحُفرت الترعة الكبرى في القرن التالي ممَّا يدلُّ على تقدُّم الهندسة .

وقد عرف أبناء مملكة «ابن السماء» علوماً وفنوناً جمة كالكتابة، ومبادىء علم الهيئة، واخترعوا الحك (البوصلة) والمطبعة والبارود، وتعالت جدران معابدهم في الفضاء، وكست الحرائرُ النفيسةُ الرجال منهم والنساءَ، وشربوا الشاي في فناجين الصيني الثمين أيام كان الغرب في همجيةٍ قصوى. واذا أخذنا ببعض ما وصل الينا من كتاب كنفوشيوس المدعو «تشو — كنج» علمنا ان مبادئهم الاخلاقية من عبادة الآلهة وحبّ العائلة واحترام الموتى الخ. لاتقلُّ جمالاً عن اسمى المبادىء المعروفة لدينا

وقد تأثّرت اليابان في القرن الرابع ق. م. بمدنيتَيّ الصين والهند كما تأثرت أوربا فيما بعد بمدينة اليونان واللاتين. وبعد كفاح عنيف بين المولى والاشراف، يشبه كفاح الارستقراطية والملكية في القرون الوسطى، اعتنق ذلك الشعب الشرقيّ المتوقّد مدنيَّةَ الغرب الحديثة بأكملها وصار، وهو القزم في عالم القياس، يخطو خطوات جبار في عالم التقدم والرقيّ

كذلك كانت الملكية حسنة العائدة في القرون الوسطى مع شارلمان . واذا ماشيناها الى أيامنا مع بسمارك — وهو أكثر ملكية من الملك، كما يقولون — ومع الامبراطور غليوم الثاني وجدنا ان المانيا في عهد هذه القيصرية الحربية المطلقة جرت خلال نصف قرن شوطاً أجفلت لهُ الدولُ قاطبةً

على ان بقع الظلام الواسعة تحاذي خيوط النور في تاريخ هاتيك المدنيات التي لم تكن تحسبُ لحياة الفرد حساباً . وانما خلَّدت بعدها أسماءَ أشخاص اشتروا عظمتهم بدماء الجماعات وجثث العبيد

* * *

ثم حصحص بصيصُ الكرامة الانسانية في بلاد اليونان التي تناولت قبس الحضارة من يدِ الفُرس بعد ان تغلَّب ملتيادس على داريوس في مرج ماراثون ، وأغرق ثمستوكليس اسطول العجم في خليج سلامين . فأنشأ اليونان يكرّرون أصول تلك الحضارة ، وينقونها ،

ويرتبونها ليجعلوها ترضي الذوق منهم والعقل ، وهم الفنانون والفلاسفة قبل كل شيء . فجبوا وطنهم في قرنين اثنين بصيغ جديدة في القانون والعلم والفن والفلسفة . وهناك أخذ الفرد يعرف حقوقهُ وواجباته . هناك أشرق فجر الديمقراطية ولم تكن الحروب المتتابعة لتُظلمهُ ، ولا زحف الرومان وظفرهم ليلاشيهُ ، بل ظلّت أثينا المغلوبة مهذّبةَ العالم

لم تقمْ في روما حكومة ديمقراطية محضة . ويرى پوليبيس المورخ اليوناني ان النظام الروماني كان مزيجاً بديعاً من الملكية والارستقراطية والديمقراطية . غير ان العنصر الديمقراطي كان كبير النفوذ ، راجح الشوكة ، بعد ان صارع الطبقات العليا فتساوت جميع المراتب في الخضوع لسيدٍ واحد هو قيصر . وكما كان العالم القديم شديد الاعجاب ببسالة الجيوش الرومانية ، كذلك كان الاعجاب بالوحدة الامبراطورية من الشدة بحيث بقيَتْ تلك الوحدةُ مثلاً أعلى تنشدهُ الملوك في العصور التالية .

فأقام شارلمان دولته على منوالها ، وطمع نبوليون في إعادتها الى الوجود بعد كرّ العصور

شُطِرَت دولة الرومان في آخر القرن الرابع للمسيح شطرين: امبراطورية الغرب وعاصمتها روما، وامبراطورية الشرق وعاصمتها بزنطية (الاستانة اليوم) . ولم يطُلْ حتى تدفَّقَت الشعوب الاسيوية واشتركت مع شعوب زحفت من أوربا الشرقية والمتوسطة ؛ فتبارى المغول والسلاف والجرمان في الاغارة على روما واكتساحها وايساعها تخريباً وتدميراً زمناً يناهزُ قرناً. وطفقوا بعدئذ يقتبسون عادات الامم المغلوبة وقوانينها ، فألَّفوا منها نظاماً قام عليهِ فيما بعد التشريع الاقطاعي

وتجاذبت السياسة في القرون الوسطى نزعتان : الوحدة الدولية أو المركزية ، والتخصيص القوميّ أو اللامركزية . فمن قائل باخضاع الشعوب وتوحيد قيادتها كالامبراطورية الرومانية ، ومن قائل بتوزيع القيادة واطلاق كل أمة تنظرُ في أمورها وتنمي مدنيتها

وفقاً لمطالبها القوميــة وممكناتها الطبيعية . فتغلّبت النزعة الأولى بصيرورة شارلمان أمبراطوراً على الغرب ، وهو الذي عهد الى الاشراف بادارة المقاطعات تحت مراقبة مفتشين اختصاصيين — على أن يكون اليه مرجع الاحكام جميعاً حتى في الأمور الدينية . وسادت بعد ذاك النزعة الاخرى يوم تقاسم الدولة احفادهُ الثلاثة في معاهدة فردون (في منتصف القرن التاسع) ، التي أوجدت كلاً من ممالك فرنسا وألمانيا وإيطاليا ذات كيان سياسيٍ مستقلّ . ثم تناولها النظام الاقطاعي في القرن العاشر فظلّت إلى القرن الثاني عشر عجاجة دويلاتٍ وأماراتٍ ودوقيات وكونتيات لا عداد لها ، وبين صاحب الارض والرقيق تبادل حقوق وواجبات تتنوّع بتنوّع الأمزجة الشخصية والعادات المحلية . والمرجع النهائي إلى الملك الذي لم تقم فوق ارادته غير إرادة الله

وكان حجر الزاوية في صرح تحرير الأمم الحديثة تلك البراءة الملكية التي نالها الانجليز من ملكهم

في مطلع القرن الثالث عشر وقد منحتهم مبادىء الحرية الدستورية التي ستتكيَّف الاحوال منذ الآن فصاعداً لتنشرها في جميع أقطار الغرب . من تلك الاحوال أن البرابرة عادوا إلى التفجُّر من مجاهلهم كما فعلوا منذ عشرة قرون فتدفقت سيولهم على الشرق والغرب ، واكتسح التتر فيما اكتسحوا الدولة البيزنطية — تلك الدولة التي كان لجأ اليها أسمى عناصر الدولة الرومانية المقهورة وأجملها . ومن هذه الكارثة العالمية الكبرى ، ومن اختلاط الشعوب وامتزاج المدنيات تكوَّنت حضارة جديدة ازدهرت على الاطلال والانقاض كما تنبت الازهار في ميادين القتال وعند زوايا القبور . ذاك أن البيزنطيين عادوا بكنوزهم الفكرية والفنية إلى ايطاليا فالقوا فيها شرارةً ما لبثت أن شبَّت ناراً امتدت منها اللهب في انحاء الغرب فخلقت فيه حياة جديدة وروحاً جديداً — وذلك هو عهد الانبعاث أو النهضة

انتعشت الفنون والآداب ، واستنارت الافكار ،

وتقدمت العلوم . وا كتشف كولمبس القارة الامريكية فأدركت العقول من العالم صورة غير التي رسخت فيها . والتفت الناس إلى كرامة الفرد وأهليته وأخذ الاجتماع الحديث يتمخَّض بمبادىء تنافي مبادىء الاجتماع القديم. وشُفعت هذه وغيرها من عناصر « النهضة » بثورةٍ دينية بدأت في المانيا بزعامة لوثر . وكانت تلك الثورة ابنة النهضة الفكرية وحليفتها إلاَّ انهما افترقتا بعد حين ، وتسرَّب الاصلاح الديني إلى حيث لم تصل النهضة الفكرية ، فكثُر أتباعه في المانيا وسويسرا وفرنسا واسكتلندا وانجلترا . ولئن انتج معارك دموية فظيعة فقد ساعد في تحرير الفكر لانه اطلقه من القيود الدهرية . وأظهر إمكان النقد للفلسفة الدينية فسَمَت بذلك قيمة الايمان نفسه . لأَنَّ ايماناً يمتنُ ويرسخ بعد الامتحان بمحكِّ النقد العلميّ خير من ايمانٍ يقوم على الجهل والوهم والتسليم . واختراع المطبعة وسهولة الطباعة يسَّرا إذاعة الآراء بين أهل البلد الواحد وشعوب البلاد الاخرى

وبينا نظام الاقطاع يسود في المانيا وغيرها من بلاد الغرب ، وبطرس الاكبر وخليفته كاترينا العظيمة يحوّلان الروسيا من مملكة شرقية إلى أمبراطورية ذات صبغة غربية — إذا بسويسرا عاكفة على تحسين نظامها الجمهوري الذي ساعدها بعدئذٍ نابليون على التمتّع به في أكمل حالاته . وإذا بانجلترا تعدل دستورها وتخطو به خطوة جديدة في ربوع الحرية فلم تنجح في ثورة ١٦٤٨ ولكنها نجحت سنة ١٦٨٨ دون هدر قطرة دم واحدة . وانتهت المناقشات السياسية مع زعم الملكية بتناول حقوقها من الالوهية ، وتفرغت الحكومة للشؤون الخارجية فاقامت هذه الامبراطورية التي لا مثيل لها في التاريخ المثبوت . وسارت في طليعة دول تنيرها بقبس دستورها ومضى الفلاسفة والمصلحون يستقون من منهل حريتها . واذا بفرنسا تفوز بالوحدة الوطنية في عهد لويس الرابع عشر . إلا أن الاهالي كانوا في استياء من انقسام الامة الى ثلاثة أقسام : قسم الاكليروس ، وقسم الاشراف ، وقسم

غير الاشراف . في استياء لان هناك جماعة تتمتع بجميع الامتيازات ولا تحمل مسؤولية ، بينما جماعة أخرى ترهقها المسؤولية ، ويضعفها الكدح المتتابع ، وتثقل كاهلها الضرائب . وليس يتساوى الجماعتان في غير الرضوخ لارادة الملك

لم تطل الحال . بل انبثق فجر آراء جديدة في التساهل والمساواة بفضل الفلاسفة والاقتصاديين والانسكلوبيذيين ، وظلت هذه الآراء كالشرارة تدنو من بارود السخط العام الذي دوى قاصفاً في الثورة الفرنسية فأُعلنت « حقوق الانسان » لازالة ما بين البشر من حدود وفروق . وتقررت سراية القانون عليهم جميعاً من غير ما جور أو تحيز ، ولهم أن يُقلّدوا وظائف الحكم والتشريع والقضاء وفقاً للكفاءة منهم والمقدرة . فاذا صح أن فرنسا درست الحرية على انجلترا فانها مع أمريكا أشبعت العالم بفكرة الحرية فتبعت الدول آثارها تدريجاً . لأن الديمقراطية ، وكل نظام آخر يتغير بتغير طبيعة بلادٍ ينفذ

فيها . ولقد جاهد الغرب حتى انه بعد إعدام قيصر روسيا وانهيار عرش المانيا والنمسا ، لم يبق في انحائه ملكية مطلقة واحدة وأن الديمقراطية عمّت العالم المتمدّن . وإن لم تكن البلاد جمهورية كاميركا فهي ممالك دستورية كايطاليا واسبانيا الخ . ولا يعلم إلا الله مايختفي وراء تلك العروش المترنحة من دسائس البلشفية ، وقنابل الفوضوية ، ومدمرات الشيوعية .

* * *

فاذا كانت الديمقراطية هي حكم الشعب ، وتسوية الحقوق والواجبات بين أفراده ، فلا مناص مما يحمل الجماعة على المطالبة بهذه التسوية وذاك الحكم . فأيّ مُحرِّكٍ ياترى بعث على الغاء الملكية والارستقراطية واحلال الدساتير الديمقراطية محلها ؟ نعم ان بين القوى الانسانية ترابطاً متيناً ، وائتلافاً تاماً ، بحيث ان التيقظ إذا بدا في قوةٍ لا يلبث ان يمتد فيتناول القوى جميعاً . على ان هذا لاينفي ان لكلّ حركةٍ باعثاً رئيسياً تتفرّع

منهُ بواعث جمة . ففي الماضي كان الجيش اليوناني يتألف من الاشراف الذين لم يكونوا ينازلون العدو الاّ على الخيل أو في المركبات . وقد لاحظ ارسطو ان جيشاً يرجح فيهِ الفرسان لجيشٌ حكومة ارستقراطية . ولكن الحروب المتزايدة في الداخل والخارج ثلمت صفوف الفرسان أزاء مهاجم عيّ . فأُرغم الاشراف على تعزيز الجيش بفيالق المشاة من الشعب . وأمدادها بالسلاح المعدات ، وتدريبها على القتال والدفاع . فشعر هؤلاء بضرورتهم لحفظ كيان الوطن، وانبروا يبثون في البلاد الثورة والشقاق حتى ظفروا بالمساواة المدنية والسياسية . كذلك في روما التي لم يكن لها من شاغل سوى الفتح والاستعمار ، واشرافها يربأون بأنفسهم عن التجارة والصناعة والفلاحة وغيرها مما أقبل عليهِ الشعب فأصبح صاحب الثروة ، وترامي أطراف الامبراطورية ، واحتياجها الشديد الى زيادة جيوشها البرية والبحرية أوجب ضمّ الشعب الى صفوف الفاتحين والمحاربين ، ومنحهُ من الامتيازات مالم يطلْ ان تمتعت

بهِ الامة جميعاً . فصار لها مجلس نيابيّ يتكلم بصوتها وانقسمت الامبراطورية الى حزبين : حزب الاشراف وحزب الشعب كما يوجد في عصرنا الرأسماليون والعمال . فكان إن استأثر مجلس الاشراف برأي امتنع مجلس الشعب عن التصويت ورفض مساعدتهُ لتتميم الاعمال — وفي ذلك صورة للاضراب في هذا العصر . ولم يوفّق بين الحزبين الاّ بعد قرن ونصف قرن اذ تنازل الاشراف عن الامتيازات السياسية أولاً والدينية بالتالي — لأنّ الوظائف الدينية كانت سياسيةً أيضاً

اشتراك الشعب في الحرب هو إذنْ مصدر الديمقراطية القديمة . وأما الحديثة فمصدرها اثنان متلازمان هما : أولاً — الاختراعات الآليّة والاكتشافات العلمية وثانياً تعميم المعرفة وسهولة التعليم . ففطن الذين كانوا بالامس يذعنون غير متذمرين ، وربما مسرورين شاكرين — فطنوا الى أهمية عملهم في هذه الاساطيل التي تمخر

البحار وتُدني ما شسع من الامصار . وتلك السكك الحديدية التي تشقُّ الأطواد وتطوي القفار وتطوّق الكرة بنطاق مكين ، وهاتيك الآلات البخارية والكهربائية والهوائية التي تفيض على العالم النضار وما يمثلهُ من ثروة وتحبو الناس باسباب الرغد والهناء . وبينا الثروات الباهظة تقيم السدود بينها وبين الفقر المدقع إذا بالمعرفة تزيل الفروق وتقرّب بين الطبقات . فتنبهت الاطماع العامة وأحدثت في النفوس غلياناً أثارها على التقاليد الموروثة ، فنادى الجمهور بالديمقراطية ملخصاً مطالبهُ في بندين جوهريين أحدهما سياسيّ والآخر اجتماعيّ ، وهما : ان الديمقراطية قائمة على أكثرية العدد التي يستمدّ منها القانون قوته . وانها تقضي بحذف الفروق الاجتماعية ، أو على الاقل بتحويلها إلى أقلها ليتمكن جميع الافراد من إنماء مواهبهم وإظهارها بلا ضغطٍ أو مقاومة

واقد لمست موجة الديمقراطية شواطىء الشرق

الادنى وأوّل من هتف بها في مصر لطفي بك السيّد، يوم كان بعضهم يطلقون عليه مزاحاً لقب« الفيلسوف الديمقراطي » . ولم تقف المسئلة عند حد المزاح بل هو لاقى من اعتناق الافكار الحديثة مصائب واحتمل سخافات . منها انه يوم كان مرشحاً لعضوية الجمعية التشريعية سنة ١٩١٤ حاربه أحد مزاحميه بما لو فهمهُ القوم لكان للطفي بك لا لخصمه حجّةً. قال الخصم « يبقى نائب عنّا ازّاي ؟ دا راجل ديمقراطي ! » فارعبت الناخبين هذه الكلمة الاعجمية وأوّلوا معناها بأسوأ ما يتوهمون . بيد أن التغير ناموس الكون . ولم تمضِ خمسة أعوام حتى صار لمصر الفتاة حزب يدعى « الحزب الديمقراطي المصري » تنتسب اليه فئةٌ من أرقى الشبان المتعلمين في أوربا ، العائدين من مدارسها العالية بمعتبر الشهادات ومحترم الالقاب . وهنا الوقائع التاريخية تقضي بالاعتراف أن اسم الديمقراطية جديد في هذه البلاد ولكن معناها غير جديد . لان الاسلام كان أبداً ديمقراطيّ

المبادىء ديمقراطيّ الاساليب . وهل من ديمقراطية أتمّ من أن نرى الملوك يتخذون لهم من الجواري زوجات شرعيات ويرفعونهن إلى مراتب الملكات ؟ أوَهل من ديمقراطية أوفى من أن يخرج من الطبقة الدنيا قوم يرتفعون بكفاءتهم الشخصية ورجاحة عقولهم فيحملون أعظم الالقاب ويقلدون أجلّ المناصب ؟ ولكن على مقربة من هذا التساهل والانصاف تقوم ارستقراطية مزدوجة ، لأن موقف الاجير المصري أزاء صاحب الارض يكاد يكون – فضلاً عن موقف العامل العصري أزاء المموّل – موقف الرقيق أزاء الشريف في نظام الاقطاع . وكانت الحال على ذلك في سوريا وفلسطين حتى الحرب العظمى . أما في لبنان فالديمقراطية نافذة منذ ان حوّر النظام الاساسي في سنة الستين

وليس هو الاسلام وحده ، وانما قالت بالمساواة قبله البوذية والنصرانية . على أن مؤسسي هذه الاديان جاءوا باستثناء واستدراك اذ ذكر بوذا التناسخ وان من البشر

من هم (بذلك التناسخ) أكبر سناً، وأعظم فضلاً، وأوفر طهراً. وقال السيد المسيح «المدعوّون كثيرون والمختارون قليلون». وجاهر النبيُّ العربيُّ بان الله يهدي من يشاء. وكيف لا يرى هؤلاء المشرفون على أسرار النفوس فروق البشرية تفصلُ بين هؤلاء الذين تجمعهم جامعة الروح العليا؟ فجاءت السياسة تؤيّد ما لم تفلح في توطيده الاديان ولا فازت بتثبيته حضارة اليونان والرومان

وأما الفرق بين الماضي والحاضر فهو أن الديمقراطية القديمة قامت على العبودية فظلّت الطبقة السفلى مسخرة للاعمال الدنيا والخدمة لتتفرغ الطبقات العليا للحكم والقضاء. كان الفرد ينتمي أبداً إلى سيدٍ أو قبيلةٍ أو عشيرة (على ما نرى اليوم بين الاعراب أهل البادية وسكان الريف). فيفاخرُ بقولهِ «نحن» كأنَّ لا رأي له ولا قيمة في ذاته منفصلاً عن جماعتهِ. على نقيض هذا العصر ونحن

الفرد فيه أن يقول « أنا » وأن يكون قيماً في نفسه، مجرداً عن أي أحد. وايا كان حسبه ونسبه . الفرد اليوم يقوم مقام المجموع ، وليست نقابات العمال وشركات التعاون لتثبت غير ذلك . الواحد للكل ؛ نعم ، ولكن على شريطة أن يكون الكل للواحد . وهي ميزة تفرد بها هذا العصر ولم تعهد من قبلُ . واتن قبلناها من غير دهشة فلأننا نحياها . أما مؤرخو المستقبل فسيتخذونها محور أبحاثهم ، ويرون فيها ما لا بد أن تكونه : فاتحة عهد جديد

*
* *

وبعد كل هذه الحربة وكل هذا التقدم ترى هل حصل الفردُ على السعادة المنشودة ، وهل تمّ للمجموع السلام والهناء ؟ هل جاءت الديمقراطية بكلّ ما يُنتَظَر منها ؟

هنالك ميزة تلازم ميزة « الفردية » العصرية وهي طلب التوسع والاستعباد على الطرز الحديث . مفهوم

أن الامم الـكبيرة تقول برغبتها في انهاض الامم الصغيرة من جهلها وخمولها ، وتسييرها وإياها جنباً الى جنب في موكب الحضارة العظيم . ولـكنهُ مفهوم أيضاً ان هـذا القول أسلوب من أساليب البيان السياسي ؛ وأن تلك الامم لاخلاص لها مع هـذا التزاحم الدولي والازمات الاقتصادية في غير استغلال المستعمرات وتصريف تجارتها فيها . وما ان تعدت المـانيا نصف قرن وفاجأت—أو زعموا انها هاجمت—أوربا بالحرب الضروس الاَّ توصلاً إلى انتزاع ما يمكن انتزاعه من عدوٍ حسبت اندحاره أمراً واقعاً . ولـكن المـانيا هي التي اندحرت ولو إلى حين ، والشعوب المرجوّ استغلالها واستنتاج أراضيها بدأت تتحرك وتأبى أن تُستعمر وتُستغلّ .

دعْ عنك الخطر الاصـفر الذي اكتسح الغرب مرتين في مطلع القرون الوسطى وفي آخرها ، وطالمـا تخوّفته أوربا قبل الحرب الـكبرى وما زالت تخشى منه إغارة

جديدة تجيء أشد هولاً وافتك بطشاً

هذه مظاهر الديمقراطية في الخارج . وما حال تلك الحكومات في داخلها ؛ أي صنوف المساواة يسري بين مراتبها الاجتماعية وبين أفرادها ، أزالت الفروق من بينها ولم يعد فيها صغير أو حقير ؟ يخيل الينا أن أقرب الامم إلى الديمقراطية هي الأمة الامريكية لقلة ما وراءها من التقاليد . فهل حالت المساواة دون ما يقابل به البيضُ السودَ من ازورار واحتقار ؟ هل حالت الحرية والمساواة دون هدر الدماء والتشنيع والتفاضل ؟ إن تلك القدر الهائلة التي تغلي فيها جميع عناصر الدنيا ما زال يؤبهُ فيها لفروق الجنسية والثروة والذكاء والعلم والتربية . مازال يؤبهُ لتلك الفروق بالفعل وان نُفيت بالقول . بل ما زالت الانتقادات تملأ صحفهم ، وتعدد الاحزاب يقسم مجالسهم ، وقرب ثروتهم القارونية نرى العوز الاقصى والحرمان الوجيع . فاذا كانت الديمقراطية الدواء الناجع فما هذا الذي نسمعهُ من

صخب الشكاية والتهديد ؟ ما هذه البراكين الفائرة ضمن أنظمة المساواة التي سُنت بدماء الانام ؟ وما بال موقف العمال ازاء أصحاب الاموال يشبه موقف الشعب ازاء الارستقراطية في القرن الماضي ؟

سُئل صولون الشارع اليوناني يوم وضع أسس الديمقراطية « أتظن انك أعطيت أهل أثينا أحسن نظام ممكن » ؟ » فأجاب « بل أعطيتهم أحسن نظام يوافقهم » . وقيل انهُ لم يكن يطمع في نفوذ نظامه أكثر من مائة عام . وقال آخرون بل كان يتوقع تغييره بعد عشرة أعوام . ويُحسب صولون من حكماء اليونان السبعة فلا عجب إذا هو لم يثق من دوام القانون لانهُ يعلم ، وهو الحكيم ، ان طبيعة الانسان فرداً كان أو جماعة ، متبدلة متحولة متكيفة مع الاحوال ، وأن القوانين توضع للافراد وليست الافراد موضوعة للقوانين

وازاء حركات الدول في داخلها وفي خارجها ، ازاء

حرب الاحزاب وسخط المراتب وتربُّص الطبقات، إِزاء حاجة المدنية وانتاجها وما تفنيهِ من جديد وتحييه من قديم، إِزاء الفروق الجوهرية والكره الطبيعيّ وضرورة الحرب والمناضلة، يقف المفكر متأملاً. وإذ تتعالى اليه اصوات الهاتفين وضجيج الغاضبين، ترتسم في الفضاء أمامه صور الشارعين يكتبون الانظمة ويسنون القوانين متفائلين مستبشرين. فينظر اليهم صامتاً وفي نظرهِ هذا السؤال الذي لا جواب عليه: «أين المساواة التي تدّعون؟»

٥

الاشتراكية السلمية

طالما كانت النظريات المجرّدة والمذاهب الفلسفية مستودعاً لمختلف الآراء يُستخرج منها ما لا يتفقُ مع مرماها الاساسيّ أو ما يناقضهُ . ومن الادلة على ذلك ان الاشتراكية مُقتَبَسَة من مذهب« هجل » الفيلسوف الالماني . وما الفلسفة الاشتراكية أو المادية الماركسية كما يسمونها أحياناً ، الاّ تحريف الفلسفة الهجلية تحريفاً قد يكون مقصوداً ليتلاءم وحجة ماركس الكبرى في ثقته بفوز الاشتراكية التي أقامها على ما دعاهُ المادية التاريخية أو الاساس المادي التاريخي (Matérialisme Historique) وهاك شرح هذه المادية التاريخية التي شاد عليها ماركس عقيدتهُ :

سبقهُ المصلحون فقالوا بتدرُّج العالم ورُقيهِ بالعوامل الفكرية والادبية والاخلاقية . فنفى ماركس ذلك ليُثبت ان كلَّ تطوُّر في السياسة والتشريع والاخلاق والفكر ناتجٌ عن التكييف الآليّ والتحوُّل الاقتصادي . أي انهم أرجعوا الرقيّ الماديّ الى أصل معنوي . فقال هو بالعكس وجعل التغيُّر الداخليَّ وكل تغيير سواهُ آتياً من التطوُّر الآلي والاقتصادي . لأنَّ مبدع الاحوال ومحدِث الانقلابات هو الاحتياج البشري — ذلك الاحتياج الذي يستنبط صنوف التصرُّف ويستخدم وسائل القوَّة ليظفر بتنظيم الاجتماع على ما يقضي بهِ الزمان والمكان . فالفن والصناعة على أنواعهما من لوازم الحياة العمرانية وهما يفرضان بتقسيم العمل ، فينتج عن هذا تغاير الوظائف الموجد المراتب الاجتماعية . وتتطوَّرُ النظم في التاريخ على هذا النمط فتسودُ كلُّ مرتبة — خلقتْها الوظيفةَ طبعاً — في أشد أدوار الاحتياج اليها . لذلك ساد رجالهُ

الدين وذوو الشرف الموروث يوم كان الدينُ كل شيء ، وكان الملكُ سليل آلهةٍ تخاطبُ العباد من وراء ستار الهياكل ، وتنفذُ الاوامر ، وتسنُّ الشرائع على لسان الكهنة والعرَّافين . وتسلَّط رجال الحرب يوم كانت البلاد في خطر ازاء هجمات الغازي لا يردّهُ غير اليد المسلحة بالقوة والنار . وغلب أهلُ المال يوم استولوا على موارد الخير ومصادر الثروة . أما سيادة الغد فلليد العاملة التي لولاها لوقف اليوم دولابُ الصناعةِ فشُلَّت حركة العمران

هـذه هي « المادية التاريخية » التي تضمن لماركس وقومهِ تغلُّب الاشتراكية في المستقبل على الانظمة الاخرى . ثم ان حركة المعاش تدورُ بالانتاج ، وما الانتاج العالميّ الضخم بعمل فردٍ أو جماعةٍ أو شعب ، بل هو عمل جيش العمال المنتشر في جميع أنحاء الكرة الارضية ينتج الثروة ويموّن العالم . وهو امام هذا الخير الفائض فقير تعس شاظف العيش ، ضئيل الممكنات ، محروم الوسائل ، يعمل ويكدُّ وليس بواثق من قوت غده . فاذا كان

الطورُ جديداً . والانتاج جديداً . والثروة جديدة فلماذا تظلُّ شروط العمل قديمة؟ واذا كان الانتاجُ مشتركاً فلماذا تكون الاستفادة منه فردية؟ لماذا تشتغل الالوف والملايين ليتنعم الآحاد والعشرات؟ لماذا تتلامس الثروة والفاقة، والبذخ والعري، والعلم والجهل. والسعادة والشقاء؟ إنَّ في هذا التناقض رأس الاوجاع الحاضرة ومصدر المشاكل الاجتماعية المختلفة. فقام دعاة الاشتراكية يعالجون الامراض ويحلون المشاكل انصافاً لبني الانسان وتعزيزاً «المادية التاريخية». وأنشأوا يكوّنون شركات التعاون ويؤلفون نقابات التضامن لمحاربة الأثرة الرسمالية. حتى اذا ما توفرت لديهم القوة الكافية لم تَعُدْ الاشتراكية حكومةً في الحكومة كما يسمونها الآن، بل أصبحت الحكومة الوحيدة القائمة على أساس المساواة بين الجميع، وحذف فروق الدرجات والمراتب، وتكسير قيود الوطنيات والاديان والثروات والامتيازات

* * *

يؤاخذها كثيرون حتى المعجبون بما فيها من المبادىء السامية ، بما يشينها من أوهام ونظريات تحولُ دون صيرورتها نظاماً شاملاً نافذاً . غير انها تظلُّ عملية في بعض أغراضها . ولكن دعنا حيناً من العمليات والنظريات فالاشتراكية أقدم من ماركس وهجل والقرن الذي تتابعا فيه . انها موجودة في الطبيعة ، هي والفردية والنُظُم الاخرى جنباً الى جنب . لقد ابتدأت الوحدات الاثنوغرافية بها حياتها الاجتماعية يوم كان أفرادها في غفلة الفطرة لايرون ما بينهم من تعاريف الفروق ، ثم تطوَّرت الى الملكيّة فما عداها . ولكن ان اعترى الاشتراكية الكسوف وراءَ النظم السائدة على تعاقب الغِيَر فقد ظلّت الفكرة منها تروِد أدمغة الفلاسفة والكتّاب . هي التي أوحت إلى أفلاطون كتاب « الجمهورية » فكانت فيهِ ارستقراطية يتساوى عندها المحاربون والاماثل والموالى . وأما طائفة العبيد وما حاذاها من الطبقة الدنيا فنهمكة طبعاً في الاعمال الحقيرة ،

غريبة عن الكمال الاخلاقي الاسمى الذي ينزع اليهِ أهل « الجمهورية » وقد ترابطوا للوصول اليهِ بروابط الاشتراكية والمساواة . هم جماعة حكماء لايقيدهم متاع الدنيا ولا يربطهم نسب وقربى تخلصاً من تلك الانانية العائلية التي تخلق الاسرة فالعشيرة ، فالقبيلة ، فالأمة . فالوطن . وتتسعُ هنا وهناك حتى يصير الاحتكاك بين مظاهرها منشأ الخلاف والحروب

ومن تلك الكتب الشهيرة « يوتوبيا » تومس مورس و « مدينة الشمس » لتوماسو كمبانلا . و « اليوتوبيا الجديدة » لويلز الانجليزي معاصرنا الذي ما فتئنا نطالع طليَّ كتاباتهِ الجامعة بين حقائق العلم وبدائع الخيال مما يشوّق المفكرين

ولم تكن الاشتراكية خيالاً في الكتب فحسبُ بل نفذت قانوناً خضعتْ له جماعاتٌ وقفت حياتها للفلسفة أو العلم أو العبادة أو حب الانسانية . منها المدرسة الفيثاغورية في بلاد اليونان ، وجماعة الهشنيين على شطوط

البحر الميت . والتريث أي زهاد اليهود في مصر ، والغنوستيون وكثير من الجمعيات الرهبانية وغير الرهبانية ، ذات الصبغة الدينية أو المختفية وراء المظاهر الدينية . ومنها في الشرق المزادقة والخوارج والاسماعيلية والقرامطة والحشاشون والوهابية الخ . — وان كانت هذه الجمعيات الاخيرة أقرب الى الفوضوية منها الى الاشتراكية ، أو هي الوسط بينهما . بيد ان الاشتراكية لم تظهر قبل اليوم ، كما هي اليوم دستوراً منظماً تنظيماً عاميّاً دقيقاً في جميع فروعه ، يجاهر بغايته الرهيبة التي هي قلب الحكومة ، ونقض النظام ، وهدم المجتمع الحالي من أساسه . ليس في بلد أو في شعبٍ أو في جنس أو في قارة بل في جميع البلاد والشعوب والاجناس والقارات ليقيم على الاخربة نظاماً جديداً ، ويمدُّ سلطانهُ إلى جميع انحاء المعمور فتخضع لهُ الأمم قاطبةً مترابطةً بالوحدة الاشتراكية الشاملة وأخوّة المساواة التامة . ان هذه المضاربة الاجتماعية الكبرى

لأوّل مضاربة من نوعها في التاريخ ، ولا يعادل الطمع فيها إلاّ إقدام اتباعها القائلين بصلاحيتها ومشروعيتها التي يزعمونها المشروعية الطبيعية الوحيدة ، وأن ما عداها تعسفٌ وطغيان واستغلال لانسان الانسان

أقول الاشتراكية حاصرةً في هذه الكلمة جميع المذاهب المدعوّة باسم موجديها في الغرب ، بل باسم الذين أحدثوا فيها بعض التغيير والتعديل . وسواها من المذاهب ذات الفروق المهمة ومنها ما يرمي الى اشتراكية الاملاك ورؤوس الاموال فقط ، ومنها ما يعمل لشيوعية رؤوس الاموال وشيوعية استهلاكها جميعاً . لان جميع هذه المذاهب تتفقُ في المسألة الجوهرية وهي هدم الملكية الفردية واقامة الملكية الشيوعية . فيمسي الفرد غير مالك بصفتهِ فرداً مستقلاً . وإن أصبح مالكاً من حيث هو جزء من مجتمع تتوزع الخيرات بين أفرادهِ على قاعدة التسوية . أما نزعات طالبي تحقيقها فعلى كثرتها تنقسم إلى قسمين

رئيسيين : أحدهما أقوى من الآخر كثيراً غير ان قوته لا تنفي وجود نده : وهما النزعة الالمانية الثورية ، أو الماركسية التي انقلبت في الروسيا بلشفية ، وموجدها ماركس العظيم . والنزعة السامية التي يجوز أن تُنعت بالفرنساوية لان جلّ أهلها أفرنسيون — وان وجد بينهم من قرب إلى الماركسية ، أو من شغل الوسط بينها وبين دعاة الاصلاح السامي

*
* *

الاشتراكية السامية كالثورية ترمي إلى تغيير النظام القائم ولكن بوسائل غير حادة . بل بادخال أعضائها في الهيئات النيابية والادارية والقضائية يعدّلون ما أمكن تعديله ، ويكثر عددهم مع الزمن حتى تصبح يوماً أعنة الشؤون في أيديهم . فيسنّون نظامهم وينفذونه دون استباحة أرواح وسفك دماء . ولقد ولدت الروح الاشتراكية الجديدة مع الديمقراطية الجمهورية في الثورة الفرنساوية التي استفزّت في آن واحد الحماسة الوطنية

وحماسة توحيد جميع الأوطان . وظلّت تلك الروح نامية في فرنسا وسويسرا وانجلترا والمانيا حتى خطا بها لوي بلان . صديق فكتور هوغو . خطوة واسعة سنة ١٨٣٩ اذ أعلن أن غايتها هي حماية العامل من جور صاحب العمل . وجعله قادراً على الانتاج مستقلاً في ما سمّاه « المعمل الاجتماعي » . وأنشأ برودون بنك التعاون المدعو « بنك الشعب » سنة ١٨٤٩ فانضم اليه عشرون ألف مساهم في ستة أسابيع . ولكن لم يطل ان حُكم على برودون بالسجن عقاباً على بعض كتاباته ، فهرب إلى جنيف فهبط بهربه مشروعه . ومنذ ذلك الحين وزعماء الاشتراكية الفرنساوية يتعاقبون معدلين من المذهب ما لا يتفق مع أحكامهم دون أن يتحوّلوا عن الغاية الجوهرية وهي القضاء على رأس المال والتسوية بين جميع أفراد المجتمع

وتنضم الى هذا الحزب الساميّ الاشتراكية الامريكية وزعيمها هنري جورج الذي لم يجد لازالة

الاضطراب الاجتماعي من وسيلة أفضل من إثقال كاهل أصحاب الملك بضرائب تعادل ايراداتهم تقريباً، كأنهم « محصّلون » لخزينة الحكومة . على ان تجعل هذه الضرائب رأس مال للعمال يستغلّونه في معامل اشتراكية فتتعطّل الصناعة الفردية شيئاً فشيئاً لنقص الايدي العاملة . غير أن هنري جورج لم يقل لنا هل يقبل أصحاب الملك تأدية تلك الضرائب ، وهل تقبل الحكومة فرضها على الذين يملأون خزائنها ؟ واذا هي قبلت ، فهل تتنازل عن مثل تلك الثروة لترسمل من غير ربى تلك الطبقة التي تحاربها في قوّتها العظمى ؟ ولو رفضت الحكومة ورفض أصحاب الملك فماذا يكون ؟ أليس أنه اذاً يدوي صوت ماركس الرهيب وتخفق الالوية الحمراء فوق جماهير الثائرين ؟

*
* *

ويصح أن يُذكر في سياق الكلام على الاشتراكية السلمية « الحزب الاشتراكي المصري » الذي أعلن بروغرامهُ

في شهر أغسطس المنصرم، فكان مسالماً الى حدٍ أغاظ الاستاذ عزيز ميرهم سكرتير الحزب الديمقراطي . من جهة ، وتخوّف لتكونه المحافظون وعلى رأسهم فضيلة السيد محمد الغنيمي التفتازاني شيخ السادة التفتازانية ، من جهة أخرى . فقامت بين هذه النزعات الثلاث مناقشة اسفرت عن أمرٍ واحد هو أن جميع المتناقشين محقّون في ما يدافعون عنه . فالمحافظ محقٌ في محافظته، والمعتدل مصيبٌ في اعتداله دون أن يكون تطرّف المتطرّف بمستهجن . لانّ مذاهبهم هذه ومئات المذاهب الأخرى وجوهٌ للفكر الانساني المختفي وراء كل وجه منها قسط من الحقيقة ، وأجزاء من كلية الحياة ذات الوف الانحاء والمناهج . فالرأي الواحد يُعبّر عن احتياج فرد أو جماعة . وما كانت الحقيقة يوماً محتكرة لفردٍ ولا الانسانية محصورة في جماعة .

قلتُ أن الاستاذ عزيز ميرهم قام يؤدّب الاشتراكية المصرية ويحثّها على « استكمال اشتراكيتها » . ليس بصفته سكرتيراً للحزب الديمقراطي . ولكن بصفتهِ الشخصية

المجردة (وقد يكون في هذا ما يخطر الحزب الديمقراطي بانفصال أحد أعضائه عنه عند ما تنضج الاشتراكية في هذه البلاد) . ولقد أجاب سلامه افندي موسى أحد أعضاء الحزب الاشتراكي بما يدلّ على تصميم الاشتراكيين المصريين على المسالمة وعلى ان رائدهم الاصلاح التدريجيّ

« ومع تمنينا نجاحهم (البولشفيين) في تجربتهم العظيمة فانا لن ننصح بالطفرة وسيكون رائدنا التدرّج والتطور . ولا شك ان الاشتراكية المصرية ستكتسب لوناً خاصاً بتأثير الوسط المصري والمزاج المصري لا يمكننا ولا نرغب في تعيينه الآن . وانما نأمل انها تسير في خطة توادّ الطبقات فيها أكثر من نصيب التباغض . فلا ينبغي أن يفهم الغني من حركتنا أنه خصم لنا نسدد اليه سهامنا . فان الغنى والفقر نتيجتان للنظام الحاضر والاشتراكية بانقاصها من حقوق الغنيّ من الجهة الواحدة ستزيد في حقوقه من الجهة الاخرى . فهي ستضمن له حياة خالية من هموم العيش

ولا تكلفه سوى شغل ساعة أو ساعتين في اليوم • وأظن أنه من الممكن أن نقنع طبقة كبيرة (!!!) (١) من الاغنياء الحسني النية بافضلية الاشتراكية على النظام الرسمالي الحاضر فلا يحتاج الاشتراكيون الى اتخاذ خطة عدائية نحو الاغنياء

« وأما ما سألنا عنه الاستاذ هيكل عن كيفية تطبيق الاشتراكية على الاراضي في مصر فهذا مما يسهل الجواب عليه : فان في القطر المصري نحو خمسة ملايين فدان مغلّ يشتغل فيها نحو عشرة ملايين نفس . فلو فرضنا أن بضعة من أغنياء أمريكا ذوي الملايين ألفوا شركة واشتروا جميع أراضي القطر المصري أكانوا يرضون بتشغيل عشرة ملايين عامل لاستغلال هذه الارض ، أما كانوا يكتفون بمليون عامل أو أقل من هذا العدد فيستخدمونهم بواسطة آلات بخارية عظيمة للزرع والريّ والحرث والحصيد ،

(١) هذه العلامات الثلاث مني — ميّ

فهذه الشركة المفترضة هى الحكومة الاشتراكية . فان القطر المصري يكفي زراعته بصف مليون عامل تقريباً إذا اعتمدنا في زراعته على الآلات وفرضنا أنه عزبة واحدة يملكها مالك واحد

« ومن البديهي اننا في نظام اشتراكي لا نخصص نصف مليون عامل للزراعة ونترك سائر الامة في بطالة اجبارية ، فان تعميم التربية سيمنع عدداً كبيراً من شباب الامة وصبيانها عن الشغل . ثم ان زيادة السكان المطردة ستضطرنا إلى الصناعة وهذه ستتطلب عدداً كبيراً من العمال لايمكن الحصول عليه الآن لان الزراعة بكيفية ممارستها الحاضرة تحول بينهم وبين مزاولة أي عمل آخر

« فالنظام المنشود اللاشتراكية الزراعية هو النظام الميكانيكي ، وبواسطته يخف عبء العمل الزراعي ويتحرر عدد كبير من العمال يستطيعون بذلك الشغل في المصانع ، وطريقة الملك الفردي الحاضرة تحول دون الانتفاع

بالالآت الحديثة . والفرق بيننا الآن وبين نظام اشتراكي هو الفرق بين رجل يعتمد فى رحلته على ركوب الجمل وآخر على ركوب القطار . فزيادة الانتاج التى تطلبها زيادة السكان لا تكون إلاّ باستعمال الآلات الكبيرة وهذه لايمكن استعمالها إلا في نظام اشتراكي » (٢)

هذا ما يقوله الاشتراكي المصري الذي حذا حذو هنري جورج وسائر الاشتراكيين المسالمين ، ابتداءً من سان سيمون الى أوسيب لوريه ، في الاستكانة عند أمله بنجاح مساعيه ولم يزد . ترى لو لمْ تقنعْ تلك « الطبقة الكبيرة من الاغنياء » فماذا يحدث ؟ أو تراهم لم يزيدوا لان السكوت أفصح من الكلام في بعض المواقف ؟

---

(٢) الاهرام

٦

الاشتراكية الثورية

خرجت الاشتراكية الثورية من دماغ ماركس كتاباً بين سطوره بقعُ الدماء ولهب الحرائق ونار المقذوفات — كما خرجت بالاس أثينا آلهة الحرب والحكمة غادة مدججة بالسلاح من دماغ أبيها جوبتر اله الآلهة . ذلك الكتاب المدعو « رأس المال » Das Kapital هو انجيل الاشتراكية الحديثة ، ولم يبدعهُ مؤلفه إبداعاً بل استخرج أهمّ عناصره من الفلسفة الالمانية ومن الاشتراكية الفرنساوية . يضاف اليها تأثير الجمعية الشيوعية البركسلية السرية التي كان ماركس هو ورفيقه انجلس ينتمي اليها بعد إبعاده من باريس ؛ وإلى الجمعية الديمقراطية الدولية العامة . فضلاً عن كتابات الاقتصاديين الانجليز وتطوُّر حركة

العمال في انجلترا ، التي ابتدأت بتأثير روبرت أون (Owen) مؤسس الاشتراكية الانجليزية وهو رجلٌ وقف ثروته البالغة اثني عشر مليوناً لتحقيق نظرياته

ماذا يبغي ماركس وأصدقاؤهُ انجلز ولاسال ويتلنج وغيرهم المنادون بالجمهورية الاشتراكية ، الموجدون بين الطبقات حرباً ما فتئت تذكّيها بلاغتهم النارية والتي ستفضي حتماً الى زلازل اجتماعية فظيعة ؟ ما هي غايتهم من الغاء فروق الوطنيات ، ومحو حدود البلدان ، وتكوين اتحاد العمال في جميع الاقطار ؟

الاقتصاد دولابٌ تدور بهِ آلة الحياة الاجتماعية بفروعها ومظاهرها المختلفة . وليس الاقتصاد هنا ليعني التوفير ولكنهم يريدون بهِ حسب الاصطلاح الحديث طريقة الانتاج والتبادل . ينتج المرء ما يستطيع انتاجهُ ليبدلهُ بما يحتاج اليهِ من ضروري ويصبو اليهِ من كماليّ ، فيتمكن بعدئذٍ من الاستمرار على الانتاج في نوع العمل الذي يجيدهُ . ولقد كان التبادل يحصل مباشرة بلا وسيط

في الجمعيات الاولى ، غير ان تقدُّم الحضارة جعل المال من الاهمية بحيث أصبح واسطة التبادل الوحيدة التي يستحيل بدونها الحصول حتى على أهمّ الضروريات . وتفنن الناس في حشده لا سيما عن طريق الصناعة التي ارتقت آلاتها ارتقاءً عظيماً . واستولى أهل رأس المال على منابع الانتاج فصاروا لا همّ لهم سوى سرعة الانتاج والانتاج بأبخس الأثمان لتزداد الثروة بالارباح السريعة . وهذان الشرطان متوفران في استخدام الآلات . فغدا العامل بذلك مرغماً على قبول أحد اثنين : فاما الموت جوعاً لضيق ذات اليد ، واما العمل بأقسى الشروط ليعيش عيشة كلها كدٌّ وحرمان وظلام

*
* *

لقد مرّت الامم والجماهير في قرون العبودية فلم يبق منها على الارض غير آثار المالكية والارستقراطية ، حتى هبّ الشعب في الثورة الفرنساوية يطالب بالمساواة مفاجئاً المستأثرين بالسيف والنار . وانبرى نابوليون

الديكتاتور يلقي بذور الثورة أينما حلّ ويوسع من دوائر الحرية ما يسّر انبساط شوكته . قبلهُ لم يكن يحاربُ إلاّ الاشراف ، ولم يكن يدخل البلاط إلاّ الاشراف ، ولم يكن يُرَشّح للمناصب الرفيعة الا الاشراف . فرفع الصغار من ذوي الكفاءة الى أعلى الدرجات ، وجعل من ذوي البسالة والمهارة الحربية مارشالية وقواداً عظاماً ، وخلَق ألقابَ الشرف للممتازين بمواهبهم الطبيعية . فشعرت الامة بما فيها طبقة العمال بأن الحرية السياسية التي اعترف لها بها سنة ١٧٨٩ متحققة

بيد ان النظام الديمقراطي قصر على تعريف المساواة بين الطبقات والافراد في الحقوق وامام القضاء ، ونادى بالحرية النظرية التي تحرّم الاستعباد النظامي على ما كانت تجوّزه القوانين في الماضي . ولكنه فاته ان هناك عبودية اقتصادية أشدّ هولاً من أية عبودية سياسية . وماذا عسى تنفعُ الحرية السياسية من ليس لديه ما يؤهلهُ للتمتع بها ؟ عبودية الامس ضمنت له الغذاء والسكن والكساء .

أما حرية اليوم فسلبته هذا الضمان ولم تُنِلْهُ ما يحتاج اليه . وما كانت قيمة المرء الاجتماعية والسياسية إلاّ لتوازي قيمتهُ الاقتصادية أي ما يملكهُ من مصادر الثروة . لأن الذي لا شيء عنده عبد لمن عنده شيء . وهو يواصل العمل ساعات طويلة ، ويفني قواه في الكدّ والاجهاد . فلماذا يبقى عبداً ؟

يبقى عبداً لأن الحكومة اهتمّت الى اليوم بالانتاج وأهملت التوزيع . وليس النقص في قلّةِ الانتاج فهو موفور . الا ان سوء التوزيع يمنح قوماً فيصبحون موالي ، ويحرم قوماً فيمسون عبيداً . أولئك يتنعمون ولا يعملون ، وهؤلاء يبذلون حياتهم في العمل بلا أمل ولا عزاء . لذلك أشهر الاشتراكيون الحرب على جميع القوانين السارية لينيلوا الذين حرّرتهم السياسة في ثورة الامس الحرية الاقتصادية في ثورة اليوم، وذلك بالتوزيع على الجميع سواء بسواء . فالتوزيع اذَن قلبُ قلبِ النظام الاشتراكي وغاية غايتهِ . ولما كان توزيع نتاج العمل ذاتِه غير مفيد لمنتجه

في كلّ الاحوال فقد جعلوا التبادل على قاعدة ما سماه ماركس « الوقت الاجتماعي » . أي عدد الساعات المستهلكة لانجاز العمل . وحذفوا المال واسطة الاحتكار والاستغلال وعامل الطغيان الاكبر . على مايرون . وقضوا على الثروات الفردية وما لها من مصارف . وشركات مالية . وصناديق توفير ، وبورصات الخ ليوحّدوا الثروة في يد الحكومة أو المجتمع . وشعارهم هو هذا «لكلٍ ما يخصهُ ولكلٍ نتيجة عملهِ » . ولكنهم علموا ان مثل هذه المساعي لا تنجح في بلدٍ واحد سوى نجاح وقتيٍ وانه لا تلبث الحكومات الاخرى أن تزاحم الحكومة الاشتراكية في أسواق التجارة وتتألّبُ عليها فتقضي على أنظمتها وتطارد مؤيديها حتى الهلاك . ولهذا قرّروا نشر دعوتها في جميع أنحاء المعمور لتتمّ بها تلك الثورة الدولية الكبرى والانقلاب العام العظيم الذي تنبأ عنهُ كروبتكن الروسيّ منذ أكثر من ثلاثين عاماً . فقاموا ينادون

باستقلال الشعوب وحريتها في تقرير مصيرها ، وما هذا الاعتراف إلاّ تمهيد للاتحاد العالمي الشامل تحت راية الشيوعية المطلقة

* * *

أما الواسطة لبلوغ هذه الغاية فهي القوة . لأنهم يرون ان النظام الحاضر يحول دون الاصلاح المنشود بمحافظته على الحقوق الفردية وتأييده امتيازات أصحاب المال والعقار الذين يملأون خزائنهُ بالضرائب . والانانية الحيوية تحمل هؤلاء وذاك على استخدام كل وسيلة ممكنة للاحتفاظ بممتلكاتهم. فالقوة وحدها تتغلّب عليهم . ولتنظيم هذه القوة أُنشِئَت شركات التضامن ونقابات التعاون ، وغرضها الدفاع عن حقوق العمال حتى اذا آن الاوان قاموا بالحركات الثورية المطلوبة . وقد استحسن ماركس الديكتاتورية لتحويل هذا الانقلاب الواسع ما يحتاج اليهِ من الشدة والاتقان ، بل رأى أنهُ يتحتم حصر الامر والنهي في يد

زعيم مطلق . ولا شك ان ماركس استنبط المنصب الديكتاتوري لموافقته لفطرته ومكانته هو الذى كان ديكتاتور الاشتراكيين يوم أسس الانترناسيونال [١] الاولى . وانما انفض الاشياع يومئذٍ من حوله لمغالاته في الاستئثار والطغيان

بين الناس اليوم شعور قويّ بأن اليهود هم الذين ابتدعو الاشتراكية وما والاها ، انتقاماً من الشعوب والاجناس والاديان التي حملت عليهم واضطهدتهم عشرين قرناً لم يكن لهم فيها حرية ولا وطن ولا كيان ، وسعياً لنشر سلطانهم على العالم . فعملوا في تأسيس الانترنسيونال التي سُميت المؤتمر الدولي الاحمر ، وأقاموا ازاءها في فينا تحالف المموّلين الذى دُعى المؤتمر الدولي

---

(١) اذا جاز الكلام فى الاصطلاحات اللغوية خلال هذا البحث العمرانى قلت ان من الكتاب من سمى الانترنسيونال مؤتمر العمال الدولى وغير ذلك . وهو اسم قد لا يفى بالمراد تماما فضلا عن طوله . فلماذا لا نقبل كلمة الانترناسيونال بذاتها ما دامت مقبولة فى جميع اللغات المعروفة ولفظتها الواحدة تفى بالمطلوب منها دون غيرها ؟ ونصيغ منها نعتاً فنقول « القوانين الانترنسيونالية » الخ

الذهبي — ذلك ليقبضوا على ناصيتيّ القوة في المعمور : وفرة العدد ورأس المال . ويستشهد الناس على صدق شعورهم بأن كبار زعماء البلشفية من اليهود ، كما ان كبار الممولين في العالم يهود يمدون البلشفية بالمساعدة السرية رغبةً في نشرها وبقصد ابتزاز المال أيضاً . لأن الثورة العامة مضاربة مالية وسياسية فيجاء تروّج سوقها الصحافة العالمية بلهجات متناقضة — وزعماء الصحافة يهود كذلك

فيدافع اليهود عن نفوسهم قائلين ان رئيس الشركة الصحافية الكبرى المستر استون ليس يهودياً ، وأن « شركة الانباء البرقية الاميركية » ليست اسرائيلية ، وان مستر هرست صاحب سلسلة الصحف والمجلات ليس يهودياً . وأن اللورد نورثكليف قطب أقطاب الصحافة البريطانية ليس يهودياً ، ومثلهُ صاحبا (الشيكاغو تريبيون) وغيرهما كثيرون . وإذا كان هناك مموّلون من اليهود فلماذا لا يذكر حيالهم روكفلر ومورغن وريان ودوبون وهنري فورد وويرهاوز ، و١٥ ألفاً سواهم من الاميركان

أصحاب الملايين الذين ليسوا يهوداً ، وإذا كان بعض زعماء البلشفية يهوداً فالوف من صغار تجار اليهود فقدوا أموالهم ولاقوا حتفهم في الثورة الروسية ، بعد ما ذاقوا في عصر القيصرية من الاهانة والعذاب والتجرد من الحقوق السياسية والقضائية. فان هم ثاروا فانما فعلوا كمرتبة اجتماعية وليس كطائفة دينية . وإذا كان تروتسكي وسفرولوف وغيرهما من البلشفيين يهوداً فليس في لنين وتشيتشرين وكراسين وكلينين قطرة دم اسرائيلي . واكثر قادة المنشفيك . أعداء البلشفيك الالداء ، يهود . ومثلهم زعماء الديموقراطية الدستورية المنافسة حكومة السوفيت. وان البلشفيين يكرهون اليهود لانهم ينظرون اليهم كمحافظين على النظام الرسمالي . وان اليهود محبون للقانون وهم في البلاد اللاتينية ، حيث تراعى الحرية الدينيـة ، أقرب الناس الى حفظ النظام وأشدّهم تعلقاً بالعائلة والفردية والملكية

ذكرتُ هـذا الاتهام والدفاع لانهُ نقطة ذات أهمية خاصة في هذا الاضطراب الشامل ، ليس استجلاؤها

بالممكن في الحاضر ولن يكشف أسرارها الاَّ المستقبل

*
* *

بينا كانت دول الحلفاء قائمة في وجه دول الوسط تهتف باسم الديمقراطية والحرية قال الكونت أوكوما، أحد كبار ساسة اليابان ، ان المدنية الاوروبية التي يزعم الحلفاء الدفاع عنها آخذة في التهدُّم والانهيار تحت معاول الاشتراكية . نعم ، العالم يرى اليوم انتهاء طور وابتداء طور آخر . وقد قامت الديمقراطية المتطرّفة تكتسح الديمقراطية المعتدلة التي لم يطل عمرها أكثر من قرن واحد بعد قرون الملكية . لان الامم نضجت بسرعة في هذا العصر ، ولا شك إن سرعة النضج ستتزايد في العصور المقبلة

لا بدّ أن تزول حضارة اليوم كما زالت كل حضارة سبقتها ، ولا بدَّ أن يحوّر النظام الحاضر كما حُوّر كل نظام قبلهُ . ها ان ظلّ الاشتراكية يمتد فوق هذا الجيل ونجد آثارها حولنا انَّى نظرنا ففكّرنا . لقد انتشرت شركات

التعاون في كل مكان حتى في أقاصي اليابان ، وهبّت الشعوبُ تتسابقُ في الانتاج الصناعي وفي التهذيب الفكريّ جميعاً . واهتزت الاجناس لعاطفة الكرامة القوميـة فعقـد حتى زنوج افريقيا مؤتمراً في لندن لتقرير المطالبة بما تطالب به أرقى أمم الجنس الابيض من سيادة قوميةٍ واستقلال . ولقد كثرت جيوش العمال العاطلين في الشرقً والغرب ، وتعددت فـتنُ الشيوعيين المهاجمين صرح الحضارة بفؤوسِ الثورةِ والعصيان. ومهما جدّ النظام الحاليّ فى الترميم فالبناء متداع سيسقط فى مستقبل قريب او بعيد. لأن روح الاشتراكية انطلقت إلى أعماق النفوس واستقرت فيها منها المطامع والامال

يا للمطامع والآمال المتشابهة فى قلب الانسان ! عند كلّ انقلاب وكلّ تحوّل يأتينا النظريون بالاصلاحات المنمقة والدساتير المزركشة مستشهدين بالعلم والفلسفة والتاريخ وضامنين لنا بتنفيذ قوانينهم عصراً ذهبياً يدرُّ على العباد لبناً وعسلا . ولكن هذا التاريخ وهذه الفلسفة

وهذا العلم الذي يستهوون باسمه ألبابنا ويلطفون آلامنا ، هو الذي ينقضُ وعودهم وينكرُها . ان في « المادة التاريخية » التي يستند اليها ماركس وأصحابه أكبر مكذب لأماني الاشتراكية لانها اذا صدقت من حيث ظهور المرتبة الضرورية للاجتماع على المراتب الاخرى ، فهي كذلك تثبت بلا إثبات وجود التغاير الملاصق للانسانية في جميع تطوراتها

أن تقسيم العمل ملازم لأنواع العمل ولدرجة عقول الناس ودرجة كفاءتهم ، وهذا التقسيم المحتوم هو الذي يخلق المراتب المختلفة . لذلك كان هذا المذهب القائل بالمساواة اظلم ماحقٍ لها ، وكان هذا المذهب الداعي الى الانصاف أشد الطغاة طغياناً . أترى المساواة في سبك العسجد والطين في قالب واحد ؟ وهل الانصاف في تجريد الغني ليُعطى المُعدَم ؟ وهل الحرية في توحيد العقل الكبير والقلب النبيل مع الفكر السخيف والنفس الزحافة ؟ وهل يقوم حسن التوزيع باستبدال ضك بصك

وعهد بعهد؟ وما هي لوائح «الوقت الاجتماعي» التي سيبدل كلٌّ بواسطتها نتيجة عمله — ما هي إلا شكل جديد من الاوراق المالية؟ ومن هم أولئك الموزعون؟ أهم ملائكة فالملائكة سقطوا. أهم آلهة لتضمن لنا نزاهتهم وعدالتهم؟ واذا كانوا على ذلك الكمال فكيف ينظرون الى ماركوني مثلاً والى الخامل الذي يتطفل على الناس — بعين واحدة؟ ولو فعلوا فسوّوا بين النسر والضفدع أفلا تكون هذه المساواة أعظم خيانة لأرقى صفات الانسان واسخف ظلم لما هو فخر الانسانية وشرفها؟

يقولون ان الشيوعية لم تنجح في الروسيا لأن الشعب ليس على رقيّ. التاريخ وراءكم أيها الفلاسفة الكلاميون، التاريخ القاسي والوراثة القاهرة. وهل الشعب فرد واحد ايرتقي كله على نمط واحد وفي درجة واحدة؟ ولماذا لم يتطور على هذه الصورة في عصور الملكية وما تلاها؟ ألأنه لم يتعلم؟ وهل كلُّ من يتعلّم يعلم؟ وهل كلُّ من يدرس يحفظ؟ وهل كلُّ من يحفظ يحسن التصرّف بمحفوظاته

وممتلكاته ؛ اذاً ماذا تفعلون بالفروق الشخصية ؟ ماذا تفعلون بوجوه العقول ووجوه الاستعدادات ، ووجوه الملكات التي لا تقلّ اختلافاً عن وجوه الأجساد ؟ لماذا لستم جميعاً مثل لنين وكروبتكن وماركس ولاسال ، حتى أنتم الأذكياء المتعلمون المخلصون ؟ وماذا تفعلون بالأجسام العليلة أتساوون بينها وبين الصحيحة ؟ وماذا تفعلون بالأعضاء البتراء أتقولون ان الفردية شوهتها ؟

إن أكبر ما تعاب بهِ الاشتراكية المتطرّفة هو نفخ الخامل والكسول والجبان وايهامهم انهم في الدنيا الكلّ في الكل . تُعاب بالقضاء على تلك المكرمات الانسانية وتلك الصفات النبيلة ، صفات القناعة والنزاهة والخضوع والرقة والتهيب أمام الأشياء العظيمة الجليلة التي هي أثمن ارث في متحف العصور ، والمناداة بصلاح ما يناقضها . المخلصون من دعاة هذا المذهب ينسبون خمول الخامل وكسل الكسول ، وجبن الجبان الى جهلهِ وعدم توفُّر وسائل التقدُّم له لينهض من دركتهِ الفكرية والاخلاقية .

وقد يصحّ ذلك في بعض الأفراد . ولكن ماذا نقول في الذين هم على هذا الانحطاط المعنوي والحسي رغم علمهم أو توفر أسباب العلم لهم ، ورغم وجاهتهم وعظمتهم الاجتماعية ؟ إن الذلّ الاخلاقي موجودٌ بين الملوك وجودهُ بين الصعاليك . فما شأن المساواة في ذلك ؟ نعم ان عيوب الاجتماع كثيرة ، نعم ان الاوجاع الحالية مريرة ولكن الدواء سيكون أمرّ والاصلاح أوجع ، لأنهُ سيظلم كثيرين من الأبرياء ويقضي على جمال كثير . غير اني من الذين يثقون بالمستقبل أيًّا كانت أغلاط الحاضر لأن التحوّل رائد الكون

الغد للاشتراكية بلا ريب ولكنها ستغلَب على أمرها بعد أن تنيل الاجتماع ما تستطيع أن تأتي بهِ من التعديل . الغد للاشتراكية ولكنها لن تكون أوفى من الديمقراطية في تتميم عودها . الغد للاشتراكية ولكن من بين الطبقات المتساوية بالمساواة الجديدة ستنهض فئة فتعلو وتطفو على الطبقات الأخرى ، طبقة إستقراطية

المستقبل التي ستخلقها الكفاءة الشخصية وتقسيم العمل المحتم اليوم والأمس وفي الغد . الغد للاشتراكية ولكن الفردية ستظل منتصبة قربها على الدوام . الغد للاشتراكية، ولكن ما بعد الغد لنظام آخر سوف ينبثق من قلب الاشتراكية التي هي مذهب انساني ؛ فهي بذلك خاضعة لطبيعة الانسان تملأها الحسنات والسيئات ويستحيل فيها الكمال – إلاَّ إذا بقي لها ذلك الكمال مثلاً أعلى تتبعهُ ويظلُّ هارباً أمامها الى منتهى الدهور.

٧

الفوضوية

نشرت جريدة « التيمس » في أوائل يوليو سنة ١٩٢٠ رسالة بتوقيع كروبتكن الروسي أنكر فيها أعمال البلشفية التي دعاها « ديكتاتورية حزبية » جازماً بفشلها. فسارعت الصحف العالمية المندّدة بالبلشفية إلى تناقل هذه الرسالة مستعملةً اياها كوسيلة لبث الدعوة ضدّ السوفيتية . ومعلقةً عليها بما يعني ان كروبتكن الذي قضى عمرهُ مضطهداً منفياً لخروجهِ على حكومة القيصر انفضّ عن شيوعيّة وطنهِ وأخذ يناهضها بعد أن كان نازعاً منزعها مواطئاً لها . وفي هذا التاميح من أرباب تلك الصحف أحد اثنين : فامّا تضليلٌ لمن لا يعرفُ وجوهُ الاختلاف بين المتمرّدين السياسيين ،

وإمّا جهل محض توحّدت عندهُ الاشتراكية والفوضوية

لأنه على مقربةٍ من الثوروية الاشتراكية ثوروية فوضوية هي أقلّ من تلك شيوعاً ولكنها أشدّ حرارة وأقوى وحشية . وكلاهما انبثق من الديمقراطية شاعراً بألم العمّال ومرجعاً أصل الشقاء الى استبداد صاحب رأس المال بالمأجور . ذلك الاستبداد الذي هو ، على قولهما ، مبعث افتقار المجاميع في سبيل تنعُّم اقليةٍ ظالمةٍ جائرة . وكلاهما يجاهر بتعذُّر اصلاح هذا المجتمع القائم على الملكية الفرديةويقول بوجوب تقويضهِ وقلب النظام الحالي رأساً على عقب . الى هنا يتفقان ثم يظهر بينهما الخلاف في أساليب التقويض وفي كيفية تنظيم المجتمع المقبل . الاشتراكية تريد تسخير الحكومة وإرهاب رأس المال لتقليل ساعات العمل وتحسين حالة العامل ريثما يتمّ لها القبض على زمام الحكم ، والفوضوية تريد الفتك بذوي المناصب لا لسبب آخر سوى انهم ينفذون قانوناً يكرههُ الفوضويون . الاشتراكية تعظم المجموع وكأنها لا تهتم

بالفرد إلاّ لأنهُ جزءٌ من مجموع هو كل شيء في تقديرها ، والفوضوية تقولُ باستقلال الفردِ استقلالاً تامًّا يكادُ يتلاشى المجموع حيالهُ . الاشتراكية تريد قلب النظام الرسمالي لتوطد مكانهُ نظامها الاشتراكيّ ، والفوضوية تريد قلب النظام الرسمالي وكل نظام سواهُ ، تريد الغاء كلّ قانون على الاطلاق أخلاقياً كان أم سياسيًّا أم اجتماعياً . هي الفوضى أي التفويض الى الفرد إدارة شؤونهِ دون مراقبة أو سيطرة . وتنظر إلى الاشتراكية كنوع جديد من الشُكن والاديرة ودور الحكومات فتنازلها مثلما تنازل الارستقراطية والديمقراطية ، ولعلها في نظرها أشد الأنظمة خطراً واستئثاراً . فلئن كانت الاشتراكية نقداً للمجتمع الحاضر فالفوضوية نقد النقد وهدم الهدم ، وزلزال الزلزال . فهل من عجب بعد هذا إذا ما استنكر كروبتكن تلك « الديكتاتورية الحزبية » وهو الفوضويّ المقاتل كل سلطة شيوعية كانت أم قيصرية ؟

*
* *

ترى أيّ المفكرين نصدّق ، أروسو الهاتف بالعودة الى الطبيعة لانّ الانسان خيِّر بطبيعتهِ ولكن المجتمع أفسدهُ بأنظمتهِ — أم هوبس المصرِّح بان الانسان ذئبٌ للانسان وانهُ طُوي على الفوضوية لايقمعها ويحسن ضبطها فيهِ سوى الحكم المطلق : الحسن دون سواهُ ؟

إذا تحرّى الباحث أحوال العالم بلا مشايعة ولا تحزُّب وجدَ من الناس الصالح والطالح ، الذكي والابله ، المسالم والمتحامل ، الخائن والوفي ، فوجب عليه قبول كلا المذهبين كتتمم أحدهما للآخر . وليس هوبس بالغبين ولا بالمتعسف لأن اللانظام سايرَ النظام في جميع أدوار التاريخ . وليست الفوضوية لانظاماً موقوتاً بل هي حنق وعصيان متتابع يرمي إلى نقض أركان المجتمع . فنجدها في اضطرابات آلت الى تغيير النُظُم في بلاد اليونان والرومان يتخللها ذلك الطور الخاص المدعو بالديماغوجيا أي حكومة الرعاع ، وهو في نظر أرسطو خامس أنواع

الديمقراطية [1] . ذلك الطور الموجد عهد الطغاة (Tyrans) وقد بدأ في بلاد اليونان خصوصاً في القرن السابع والسادس قبل المسيح . وكثيرون من أولئك الطغاة أمثال بزيستراتس وارثاغوراس وبيرو وبوليكراتس كانوا أولاً زعماء الفتنة ودعاة التحريض ضد حكم الاماثل أو الاقلية . ثم وصلوا الى الحكم الديكتاتوري الأعلى فكان عهدهم مقدمة لعهد الديموقراطية المعتدلة . أما الطاغية (باليونانية Tyrannos) فكان في فجر التاريخ محارباً

---

(١) الديمقراطية عند أرسطو على خمسة أنواع : فالاولى هي التسوية بين الفقراء والاغنياء مع ضبط التوازن السياسي بينهم حتى لا يدع لاستبداد هؤلاء أو أولئك مجالا . والثانية لا يصل فيها الى المناصب العمومية الا من كان ذا ثروة ما . والثالثة يصل فيها جميع الوطنيين الى مجالس الحكم والتشريع على ان تظل السلطة العليا للقانون والنفوذ لكامته . والرابعة ان يصل الى تلك المناصب من كان وطنياً بأي صفة من الصفات على ان يظل للقانون الحكم المطلق والسلطة العليا . والخامسة تكون فيها المناصب شائعة يرشح لها الجميع ولكن المرجع الاخير ليس الى القانون بل الى الجمهور الذي يقيم أحكامه مقام بنود القانون وله أن يغيرها و يمدلها و يلغيها و يبدلها بسواها كيفما شاء — وهي الديماغوجيا

في الغالب يكبرهُ الشعبُ لانهُ أنقذه من غارة المهاجمين وحفظ له حرمة الوطن ؛ فلا يطول حتى يختارهُ زعيما يتكلم باسمه في مناقشة العظماء والكبراء . ثم تغيرت الحال وصار الزعماء يبلغون أعلى المراتب بفصاحتهم البيانية — موهبة ما فتئت ترفع ذويها إلى الاوج . ولدينا من ذلك في هذا العصر أمثال الدكتور ويلسن ولويد جورج وبلفور وسواهم من فطاحل الخطابة الجليلة الشأن

وظلَّ الاضطراب الديماغوجي يقلق هاتيك البلاد بدافع التنازع الاجتماعي بين الاغنياء والفقراء حتى وضع لهُ الفتح اللاتيني حدًّا بتأييد المموّلين . لان نظام البلديات الذي قامت به الادارة الرومانية كان نظاماً تيمقراطياً أي انهُ كان يرتب الناس وفقاً لثروتهم ؛ وبديهيٌّ أن يخص الفاتح ذوي اليسار بالحكم والمسؤولية . غير أن الامة الغالبة لم تسلم من هجمات الديماغوجيا لانها دُهمت هي أيضاً بتنافس الطبقات . فتعددت في سجلاتها اسماء الطغاة ، حتى

أن المؤرخين يعتبرون اصلاحات الاخوين الطاغيين طيبيريوس وكايوس جراكس استهلالاً للدور الثوروي الذي تخطّى بالجمهورية الرومانية إلى الامبراطورية أو القيصرية

تتالت جماعات الخوارج عند مختلف الشعوب مظهرةً استياءها بصنوفٍ جمة من التمرّدِ والمقاومة الى أن وصلت الفوضوية إلى طورها العصري . ويرى أهلها في فلاسفة الفردية في القرن الثامن عشر كروسو وسواه المخبرين والمبشّرين . ويكادون يستخرجون شعارهم من بيتين كتبهما ديدرو أحد مؤسسي الانسيكلوبيذيا الفرنساوية ومفادهما : « لم تصنع الطبيعة من الناس الخادم والمولى ، وأنا لا أريد أن أَسن الشرائع ولا أن تُسنّ لي » (١)

ولكنّ صاحب الوجه النظري من هذا المذهب هو الذي يدعوهُ كروبتكن « أبا الفوضوية الخالد » ، هو برودون الفرنسوي الذي أنكر الملكية

---

(١) La nature n'a fait ni serviteur ni maître,
Je ne veux ni donner ni recevoir de lois — Diderot.

الفردية والملكية الشيوعية جميعاً ، قائلا ان الاولى هي استبداد الاقوياء بالضعفاء وان الثانية هي استبداد الضعفاء بالاقوياء . وان حكومة تقرُّ الملكية أيةً كانت وتحافظ عليها لحكومة لا يُطلبُ إصلاحها بل يجبُ قلبها . برودون يرمي الى هدم السلطة في جميع دوائرها وأشكالها زمنية كانت أم روحية . فلا جيوش ، ولا محاكم ، ولا إدارة ، ولا كنيسة . يريد إبدال التقوى بالعدل والتديّن بحسن الاخلاق . ومتى أُلغيت السلطة حلَّ محلها التعاقد الحرّ الاختياري فينظم المجتمع نفسهُ هيئات مركزية لاصحاب الحرف والفنون والصنائع ، ويرتبط بروابط معرّضة أبداً للحلّ والتبديل دون الخضوع لقوة غريبة . وهو يستحسن الفقر لانهُ يحثُّ على العمل . وليس يرى الرقيّ في الهناء والرخاء المفسد بل في ما يكتسبه المرء من صفات الرجولة وما يعزّزها من استقلال ذاتيّ وادراك حصيف لمعاني العدل والمساواة . فيعيش الفرد عندئذٍ حرّاً مستقلاً فينتج حسب استعدادهِ

ويستهلك حسب إحتياجهِ . وكذا تسير الانسانية فى سبيل التقدم لا تقيدها شريعة ولا يذلها امرٌ ولا نهي

أما نظرية « قيمة العمل » فواحدة عند برودون وماركس جميعاً الا إن هذا سخر بذاك . لان الماركسية وان خُيلت منادية بالمساواة فهي في الجوهر نظام ديكتاتوري له صرامة القضاء والقدر وقسوة التطور المحتوم الذي تقوم عليهِ . فتبدو ازاءها الآراء البرودونية في الحرية والمساواة والعدل خواطر شعرية روائية شفَّافة تذوب كالضباب عند شروق الشمس

ماركس يقول بالثورة الصريحة بلا مداورة ، أما برودون فتختلط عنده الثورة بالاصلاح ويتغلب هذا أحياناً ، ولا سيما عندما ينصح للعمال أن يتصافوا وأصحاب رأس المال . إلا ان هذا لا ينفي أن برودون ذا المواهب النادرة والنفس المتلظية هو الذي شوش العقول والهب القلوب وأطلق مسموم السهام . وان من فوضويتهِ النظرية العلمية تولدت الفوضوية العملية المحسوسة . فوضوية سار

باكونين الروسي فى سبيلها فاندفع وراءه المندفعون . كان شعار برودون « لا إله ولا سيد » فاضاف اليه باكونين « ولا عقيدة ولا شريعة »

*
* *

ظهرت بوادر الفوضوية العصرية فى الانترنسيونال المنعقدة مؤتمراتها بمدينة لاهاي في أواخر سنة ١٨٧٢ ، وذلك بانسحاب أحد الزعماء باكونين الذي عيَّب الاشتراكية أن تكون حكومة ذات مجلس عام له سلطة ديكتاتورية مطلقة على اللجان الفرعية . تعود اليه هذه للبتّ في شؤونها ، ومرجع الاحكام إلى ماركس القائم على رأس التحالف زعيما لا مردّ لقضائه . فانحلّت الانترنسيونال، وتشتّت شمل الاعضاء فالأ بعضهم الزعيم الالمانى وشايع آخرون الزعيم الروسي . وكما ظلّ ماركس منطلقاً في تتميم مشروعه انبرى باكونين ينشر دعوتهُ . فأوجد التآلف الحرّ وانضم اليه كثيرون من مختلف البلدان وأصدروا صحيفة « الطليعة » (Avant-Garde) التي لم تكن

ان عطِّلت . فأصدر كروبتكن بالاشتراك مع اليزه ركلو الفرنسوي صحيفة « المتمرِّد » ذات الأثر الشديد في نشر الدعوة الفوضوية في أوربا وأمريكا سنة ١٨٧٨ ، لما كان عليه كروبتكن من مقدرةٍ كتابيةٍ وبلاغةٍ مستعرة. فضلاً عن أنه ذو مذهبٍ قيِّمٍ في ذاته ينمُّ عن طبيعة طويت على الخير وحبِّ بني الانسان فكانت شديدة الثقة بالمستقبل

كروبتكن كجميع الفوضويين يقول بالتحرير من النير الاقتصادي والحكوميِّ والدينيِّ ، وليس ذلك التحرير عندهُ حاماً من أحلام الغواية بل هو نتيجة سيفضي اليها اتجاه الاجتماع الحالي . أما وسيلة التحرير فهي الثورة — الثورة الجديدة المختلفة عن كلِّ ثورة سبقتها . تلك لم تتعدَّ بلاداً شبَّت فيها . أما الثورة الجديدة فاذا شبت في بلد امتدت بسرعة الى ما يحيط بهِ وألهبت انحاء العمران . وهو يؤثر الثورة على الاصلاح لان في الاصلاح قبولا مضمراً للماضي الذي يتعدَّل بالاصلاح قليلا أو كثيراً . بينا الثورة

تسير الى الامام سابقة لتنصب على محجة المستقبل اعلاماً.
ولما كانت الجرائم لا تُقترف الاَّ ضدّ الملك ورأس المال
(؟) فبالغاء العلة تلغَ النتيجة. والاخلاق الفوضوية تجعل
الناس أذكياء أحراراً صالحين عادلين (؟) واذا بقي هناك
اشرار يميلون الى الاذى فالطبّ يصدقك الخبر وهو القائل
أنهم مرضى ومجانين. فبدلاً من العقوبة والسجن عالجهم
بالمؤاساة والاخاء، ودع الجميع في راحةٍ واستقلال يرتفعون
إلى آفاق معنوية مجهولة

وهكذا تطوَّر ذلك التمرُّد الذي كان عند روسو
حنقاً على الشرائع، وعند ماركس سخطاً على رأس المال
لا على أهله، فانقلب عند باكونين هتافا بالحرية الطليقة
مع كرهٍ للفتك، وبدا عند كروبتين إدراكا لطبيعة الثأر
دون أن يحكم له أو عليه. الى أن قرّر المؤتمر الفوضوي
المنعقد في لندن سنة ٨١ شرعية كلّ وسيلة لابادة النظام
الحالي واغتيال أئمته. ويقال أن صحيفة «الحرية» في أمريكا

كانت ترشدُ الخدم إلى كيفية تسميم مواليهم حتى عن طريق الاحذية !

على أن الفوضوية كجميع الميول البشرية تصطبغ بصبغة الشعب الذي يقبلها . فبينا هي حادّة لجوجة في تشيكوسلافيا مثلاً وإيطاليا واسبانيا اذا بها هادئة مسالمة في أسوج ونروج والدانمارك . ومع أن في لندن جماعة فوضوية صغيرة كانت تصدر منذ أعوام صحيفة « الفوضوي » الاسبوعية ، ومع أن انجلترا وسويسرا ما فتئتا كعبة الفوضويين الاجانب ينشؤون فيهما الاندية وينشرون الصحف بلغات متعدّدة لبثّ الدعوة في أوطانهم — فانهما لم تقاسيا من هذا المذهب ماقاسته الدول الاخرى . ذلك لان طباع أهليهما باردة عملية تنزع خصوصاً إلى الاصلاح الاقتصادي . وليس الشيوعيون في انجلترا بالفوضويين . والمظاهرات التى جرت هناك منذ شهور ناجة عن كثرة العمال العاطلين الذين وفر عددهم وتفاقم خطرهم في أكثر الممالك الكبرى.

أما الفتن والاعتصابات فتعلقة بالمسائل الاشتراكية، أو راجعة إلى أسباب محلية خاصة. غير أن الفوضوية تتفق وطبيعة العامل الامريكي. لذلك شاعت بين أولئك القوم، واشترك أعضاؤها في عقد المؤتمرات وتهيئة الاعتصابات الفرعية تمهيداً للاضراب العام الشامل

*
* *

ولعلها مزاج أكثر منها مذهب، تلك الفردية المضخمة المثبتة نفسها بالخروج على كلّ شريعة، الجاحدة حتى مجالس النوّاب لان الشعب بالإنابة والتمثيل انما يقيم عليه موالي. « وهل يكون الثور حرّاً إذا هو اختار جزّاره؟ » فجمعياتها بلا رؤساء وبلا هيئة تنفيذية، ولا يجمع بين الاعضاء سوى وحدة المشرب والمطلب والرغبة في تداول الصحف الفوضوية، والاحتفال حيناً بعد حين باعياد « شهدائهم »

ولقد فحص لمبروزو كثيرين من فوضويّ شيكاغو وسواهم فرأى إن حالة الفوضويّ المجاهد حالة عجز وسقام

وما ظهوره بمظهر الجسارة والمفاداة سوى من « وثبات » الضعفاء المتهوّرين . فمنهم المبتلون بالامراض المزمنة . ومنهم ذوو العريكة الخشنة الوعرة التي يعتاص عليها التطبُّع بطبائع الوسط ، ومنهم ذوو الجمود الاخلاقي غير الشاعرين بهمس الضمير ودبيب الوجدان ، ومنهم الجاني حبًّا بالجناية كالفوضوي الالماني موست الذي يرى فيهِ لمبروزو المذكور أحطَّ أشكال الجناة . ومنهم أهل الباطنية والروحانية . وأهل الوحي والرفعة مثل باكونين وكروبتكن . ومنهم الفدائي المقتنع بانهُ انما يضحي بنفسهِ خدمة لبني الانسان

وليفسحوا مجال الدخول إلى الفردوس الموعود تراهم يكردسون الجثث على الجثث ويجندلون الصريع فوق الصريع !

ان الفوضوية مذهب محزن مروّع ، وهو على حداثة نشأتهِ ذو تاريخ مضرّج بالدماء

٨
العدمية

العدميّة (Nihilism) اسمٌ قديمٌ كان وما زال يُطلَقُ على المذاهب الفلسفية القائلة بان لا شيء موجود ولا شيء يمكن أن يُعلم — على نحو مذهب غورغياس اليوناني أستاذ ثوسديدس كبير المؤرخين ، ومذهب فيختي الالماني تلميذ كَنْت وأستاذ شلّنج .وقد أنالها تورجنيف الروسي معنى جديداً إذ نَعَت بها في رواياتِه أشخاصاً تناولتهم الحالة الفكرية الشائعة يومئذٍ في طبقة المتعلمين الروس. ولئن أَلِفَ الناسُ الخلط بين الفوضوية والعدمية ، والنظر اليهما سوياً كمنتهى التطرّف والحدة الثوروية فلأن حكومة القيصر الاوتقراطية أوجدت هذا الخطأ وأذاعته لتبرير ما تأتيهِ من ضغطٍ ومقاومة . فوحَّدت في أحكامها

جماعة المتنوّرين الاحرار ودعاة التهويش واللانظام

على أن العدمية في وجهها الاوليّ غير الفوضوية وإن اشبهتها . أما وجه الشبه ففي كونهما معاً مغالاة في اثبات الفردية وانكاراً لكل سلطة وقيد وشريعة . وأما وجه الاختلاف ففي أن العدمية بدأت مسالمةً بعيد جلوس القيصر اسكندر الثاني سنة ١٨٥٥ وبقيت فكرية معنويّة إلى سنة السبعين . وكان القيصر المذكور ارتقى العرش مجاهراً بميلهِ إلى الاصلاح والتسوية بين رعاياهُ . فما تمّ له في سنوات حكمهِ الاولى إخراج بلادهِ من حروب اشتبكت بها مع الدول حتى تحوّل الى الاصلاح الرئيسي الذي طالما نادى بهِ وهيأهُ كتّاب الروس في القرن المنصرم فجاءَ لوطنهم أهم حوادث التاريخ في ذلك القرن . وهو أن القيصر ألغى نظام الاسترقاق سنة ١٨٦١ والثلاثون مليوناً الذين كانوا يعملون للموالي ولا أرض لهم ولا حرية أصبحوا مستقلين عن سادتهم . ورأى الاحرار في ذلك فاتحة عهد جديد فبُعثت المواهب والقوى وبرزت

العقول الراجحة ، وكثُرَ عدد المفكرين وعلماء الاجتماع والاقتصاديين والشعراء والروائيين . وقاموا يحاربون ليس الاثرة السياسية بل الاثرة الادبية في جميع أنواعها ، ويحرّرون الفرد من قيود الدين وطغيان المجتمع ومزاعم الوسط ، بما فيها المزاعم الثوروية الذائعة يومذاك في أوربا الغربية . وبعد أن هاجمو العقيدة والاصطلاح هاجموا العيلة مشعرين المرأة التي قضت حياتها أمة ، بأن جميع صنوف الحرية — ابتداء من حرية الحبّ — حلٌّ لها

*
* *

ومن أساطين هذا المذهب ومن أنبلهم غاية وأكثرهم بديهية بطرس لفروف الذي يرى أن الحوادث الاجتماعية في تطوّرها العلمي او الاخلاقيّ والفلسفي الثلاثي انما منها ما يظل في نمو مستمر ومنها مايقف جامداً فيتقهقر الى رجعية الانحلال والفساد . وبين ذلك النموّ الحيّ والبقاء الميت يتعدى الماضي على المستقبل فيختل التوازن ويظهر في ذلك الطور حدث جديد هو ما يسمونهُ المرض الاجتماعي .

وليس لعلوم الاجتماع من غرض سوى معالجة هذا المرض وضبط التوازن في آلة المجتمع . ولقد كان حكماء الماضي يرون الخلاص بالاحتفاظ بالتقاليد . واذا بالاحفاد يجدون في ذلك العلة الكبرى اذ لا جمود في الخليقة . ولما كان المجتمع تابعاً للطبيعة في سنّة التحول تحتم عليه احداث نظم تلائم احتياجات معقولة هي كل يوم في ازدياد

يهدم التطورُ صوراً قديمة ويبدع صوراً جديدة على يد أشخاص يخلقهم التطور نفسهُ وقلّ من فهمهم في محيطهم. وكلما تعالوا الى المثل الاعلى أفرط العامة في الاستخفاف بهم ودفعهم عنهم لانهم « لا يشبهون جميع الناس ». على أن نفوذ هؤلاء الافراد وفوزهم النهائي انما يتعلق بما عندهم من شجاعة وإقدام واعتقاد بأن الحرية الفردية المطلقة يجب أن تكون دعامة المدنية الجديدة الحقة . لان الانسان حرٌّ . ولو كانت فكرة الحرية وهماً لوجب الاخذ بها لانها وهمٌ ضروريّ للرقيّ

وللرقيّ عنده وجهان: النظري والعمليّ . والعمل على غير

معرفةٍ وبال . فيجب تفهُّم الرقيِ في معانيه كلها سواء أوجدت عندنا أم رأيناها حوالينا ، حتى اذا ما تشبّع الفكرُ منا معرفة واستنارة انضممنا الى أقلية المجاهدين في اتجاه معين ضد سخافة العصر واستئثار الماضي

الفردية في هذا المذهب عظيمةٌ أهميتها خالدٌ أثرها . فالافراد أحدثوا الحاضر الذي كان بالامس يخالُ مستحيلا وقد أصبح اليوم وقوعه عجيباً . فعلى كلّ ان ينهض منادياً بفكرته قائماً بتنفيذها بنشاط وقوة . ولتحمل بعد ذلك موجةُ القدرية التاريخية شخصيتهُ ونتائج أعمالهِ الى محيط الشخصيات والاعمال العامة فذلك لا ينفي إن اقدام الفرد الواحد أو احجامهُ انما هو في بناء المستقبل جزء لا ينحلّ

ومع اعتراف لفروف بأن المشاكل الحاضرة موفورة التعقيد صعبة الحلّ، وان الشرط الاعظم للاصلاح هو تبديل النظام الساري بنظام يرضي مطالب العمال وسواهم — أي أنه مع قوله بالحرية والمساواة في معناهما العصري —

فهو يعلق على الوحدة العائلية أهميــة كبيرة . ورغم انكاره جميع أنواع الحكم ومجاهرته بأن السيطرة الدينية ان تعود الى ما كانت عليهِ فهو أبعد المفكرين عن حذف الاخلاق الحميـدة من الحياة الاجتماعيــة . بل هو يدعو كلاً إلى تثقيف نفسه واصلاحها لتكون حياته مثالا ولترى نظرياته محقَّقة في أعماله . امّا غرضهُ من تعظيم الفرد في فرديته وخبرته وعمله واستقلاله فهو تهيئة عيشــة حسـنة هنيئة لملايين الاشخاص الضئيلة المجهولة المؤلفة المستقبل طوعاً أو كرها . وهو لا ينفك عن مخاطبة الفرد قائلاً «جاهد لذلك المستقبل ولا تنس أن المندحر انمـا هو ذاك الذي يعترف باندحاره»

جهاد الافراد خير الانسانية دين وغاية عند لفروف . وهو وان كان عدمياً متطرفاً الا ّ أن مباديئه الاخلاقية ومثل حياته الشخصية غيرت معنى العدمية التي لم تعد تعني النفي والانكار على الاطـلاق بل نفي «المرض الاجتماعي»

الحاضر وإنكار « تعدّي الماضي على المستقبل » . بيد أنه راسخ الايمان يثق بمستقبل خيّر فيدعو الى تهيئتهِ بصوتٍ محرّض مقنع

وأيُّ متعلّمٍ زكيّ في هـذا العصر وفي كل عصر لايكون عدميًّا بعض العدمية على طريقة لفروف ؟ أيُّ مستنيرٍ يعلم أن التطور ناموس الحياة ولا يبصر الجثث الاصطلاحية التي ينحني المجتمع أمامها ، والزوائد الخرافية التي تشين الاديان ، والخلل في محاسن القوانين والشرائع ؟ أيُّ نفس تتألم وترى الآخرين يتألمون فلا تنهض محتجة سرًّا أو علناً ؟ ومن ذا الذي يسميهِ الناس عظيماً فتتناقل ذكرهُ الاجيال ، إن لم يكن ذاك الذي يقضي على قديم ضار ويوجـد جديداً نافعاً في عالم الادب أو العـلم والتشريع والاجتماع والاختراع ؟ ولـكن ما كلّ جديدٍ بالنافع ولا كلّ ثائر بالصائب : فـكم من تمرّدٍ ليس إلا تطاولاً ومباهاة . وكم من معدِمٍ كالجزّار أو الجـلاّد

يفعل ليتقاضى الاجرة؛ وكم من مدمّر لا يسوقهُ سوى ما دفع ذلك الخامل إلى إحراق هيكل أفسس البديع يوم ولادة الاسكندر!

* * *

ولئن لم يكن جميع دعاة الثورة وأشياعها من درجة لفروف فان تلك العدمية لم تكن من الروس مكابرةً وتعنتاً، بل نتيجة لازمةً لما قاسى الشعب من الجور وهضم الحقوق، ولم تجئ سنة السبعين حتى انتهى العدمية طور الفكر وابتدأ طور العمل. ذلك ان الاصلاحات التي وعد بها القيصر ظلّ بعضها حبراً على ورق، ونُفِّذ البعض الآخر تنفيذاً ناقصاً جاء بآلام جديدة دون أن يشفي الآلام الماضية. فأخذ العدميون ينتشرون في المدائن والقرى مختلطين بالشعب ليحيوا حياته ويطّلعوا على احتياجاتهِ فيبثون بينه روح الثورة بالمنشورات والخطب والاحاديث والتعاليم. بينا كان المنفيون اختياراً

أو إرغاماً يوصلون الى الامم صوت الشعب طالباً الانعتاق من نير الاوتقراطية . وقد انضمت النساء الى الرجال في نشر المذهب الجديد وإنهاض تلك الجماهير الكثيفة من هوة الذل المألوف والعبودية المقبولة . وتعدّدت مراكز التآمر في أنحاء أوربا ، ومن أهمّ تلك المراكز مدينة زوريخ حيث كثرت الطالبات الروسيات الثائرات . فجاءهنّ الامر القيصري بمغادرة سويسرا والعودة إلى الروسيا . فعدن يُذعن تلك الآراء المهيّجة في الداخل وكانت دعوتهن الممتزجة بدعوة الرجال صراخاً وعويلاً يستحثّ النفوس على الكفاح لخلاص الوطن وخلاص الانسانية . فالتهبت القلوب ، واستبسلت الجماهير ، وامتدّت تلك العدوى الوطنية الى الكهول والشيوخ من ذوي الوجاهة والحيثية والمستقبل المكفول كالقضاة والضباط وسواهم

وخشي القيصر تفاقم الشرّ فأوقف تنفيذ المشروعات الاصلاحية مطلقاً يد الحكومة في الضغط والمقاومة

لقمع الهياج. فاشتدت العدمية من جهة أخرى لا سيما بتأثير باكونين محرّض الفلاحين على المطالبة بإتمام الاصلاحات الدستورية ، وعصيان پولونيا ، وانتشار الاشتراكية في أوربا . فاذا بالعدميــة فوضوية مجازفة مســتهترة ، وإرهاب دمويّ جنونيّ يناصب الـكيان السياسيّ غير متبصر ولا هائب في ارتكاب الجنايات ، واغتيال ذوي المكانة ، والتدمير والفتك المعتزم . وقد بلغ حدّهُ الاقصى في مقتل القيصر نفسه سنة ١٨٨١

ومرّت الايام والعدميون يُرهبون بالاغتيال والهدم والتشويش ويُرهَبون بالتعـذيب والنفي والاعـدام . وبقيت الحـكومة تطاردهم ذرافات ووحـداناً وتقضي على الزعمـاء والرؤساء منهم ، حتى أدركوا الحقيقة القاسية وهي انهم في هذا الصراع الهائل مغلوبون . فقلّ عـددهم شيئاً فشيئاً ، وضعفت حدّتهـم ، واختفت حركتهم متوحّدة والحركة الفوضوية إزاء الرأي العام

ولـكن أيعـني الاختفاء الفناء ؟ ترى ألم يبقوا

عاملين سرّاً في الروسيا وفي مختلف البلدان بعد انسحابهم من ميدان الارهاب العلنيّ ؟ ألم يكن لهم ولو يد خفية تجهيزية في الانقلاب الاعظم الذي لم تُستَجْلَ منهُ بعد العوامل الكثيرة المشتبكة ؟

منذ نصف قرن تقريباً كتب محرِّض كبير من محرّضي الروس — وأعني بهِ هرزن الذي توفي في باريس — كتب يقول ما معناهُ : « ان مطلب الروسيا هو مطلب أوربا بأسرها : الثورة الاجتماعية . غير ان أوربا التي نفَدَت حيويتها في نهضتين عزّزَت بهما تاريخها لا تعيشُ الآن الاّ بعلاقتها بالماضي الذي تتعثر فيهِ أنَّى توجَّهت . فلن تصطلح حتى يصلحها أحدٌ بالدَين . فإما ولايات أمريكا المتحدة ، واما الروسيا التي دخلت حديثاً في ميدان التاريخ . والمستقبل لهذه حتماً لأنها طليقة من التقاليد ولم تنمُ بعد النموّ الموافق لطبيعتها . ولسوف تغتنم الفرص لاظهار ما عندها من القوى الفتيَّة والمقدرة المدهشة فيبتدئ فيها الاصلاح والتعديل »

من ذا يعرف لهرزن هذا الرأي ولا يحسبهُ نبؤة بعد الانقلاب البلشفيكيّ ؟ لستُ لأزعم ان البلشفية أصلحت العالم ، ولكنها من الحول والتهديد بحيث قبلت أن تفاوضها وتتعاهد معها الحكومات الاخرى ومنها الملكية المحافظة . وكيف لا يجيء بمثل هذه النبؤة من وَقف على طبيعة الشعب الروسي وممكناتهِ المتنوّعة المكنونة ؟ أذكرُ اني حضرتُ خلال الصيف المنصرم في كازينو سان استفانو ، حفلة خيرية لمساعدة المهاجرين الروس وقد تشكَّل جوقُ رجال منهم لينشدوا بلغتهم بعض الاناشيد القومية . من ذا يستطيع التعبير عما تلازب في ذلك الانشاد من جموح وشكيمة ، وفاعلية وانفعال ، وغمّ وذلّ ونصر باهر ؟ من ذا يستطيع وصف تلك الوجوه يبدو فيها تارة الخشوع والتوسُّل ، وطوراً العتوّ والوعيد ؟ تهبُّ من أصواتها الاعاصير وتنفجرُ الصيحات، فيتزلزل المكان وتكاد تخرُّ الجدران. فيدرّبها ترنيمٌ هادئٌ على وتيرة واحدة كلهُ حزنٌ

وتجلد وخضوع . ولا تلبث الريح الزعزعان أن تعود الى الصعق والعصف الشديد ممثلة هدير البحار، وولولة العناصر ، ووعورة المنحدرات ، ورعب الآفاق الجوفاء. ولعلي أدركتُ في تلك الساعة ، بل في لحظة من تلك الساعة ، قوّة النفس السلافية المصطخبة الصاخة — ولعلي فهمت في تلك اللحظة من الاضطرابات الثوروية ، والحدّة البلشفية ، والاهوال النهلستية ما لا تشرحه المجلدات . وقد يكون اننا في تلك اللمحات السريعة نسبر من غور النفس ما لا نصلُ اليه عن طريق الاستقراء والتدليل

* * *

كلا ليس المتفائلون بالمغبونين ولا المتشائمون بالمتعسفين، فان كل جماعة عكفت على جانب من الفطرة البشرية الكثيرة التناقض والتنوع. ألا ترى ان ذاك القائد الذي لا يأبه لمشهد الاشلاء يغمى عليه اذا شمّ رائحة الجبن. وذاك المحارب الذي اعتاد النوم على الصخور والحصى

يأرقُ اذا تاهت وريقة ورد على أنسجة فراشهِ الوثير.
وذلك المحرض الذي لا يرتوي الا بدم الابرياء يقضي
ضحية امرأة لعوب مثل غامبتا ولاسال وغيرهما. ومَن
لا يذكر وقفة امبراطور ألمانيا على مرتفع ينظر الى
ساحة القتال في غد معركة كبيرة ، وما وقعت عيناه
على الخراب والقتلى حتى هطلت دموعه قائلا « لم أرد
هذا ! » فدعت صحف الحلفاء تلك الدموع « بدموع
التمساح » . ولكنها ربما كانت دموعاً صادقة كما صدقت
بعدها حملات الالمان على أراضي بلجيكا وفرنسا . لان
التناقض في الطبيعة ولأن الحرب هي الحرب . هي
صورة الحياة في أشد الهيجان والحدة. فالصراع صارم
لجوج . وان أنتَ تمهلت رحمة بعدوّك سبقكَ هو الى
الفتك بك دون رحمة ولا تمهل !

اجتمعتُ بعد الصلح بكاهن توفّر فيه الصلاح
والذكاء والعلم ، كان حارب على خطّ النار ونال المداليات
والاوسمة . واذ قلتُ له ان ما كنت أتأثر له بنوع خاص

بين أخبار الحرب هو خبر التطاعن بالسلاح الابيض،
ابتسم وأخذ يصف لي لذة الطعن والتجريح عند ما تخترق
الحربة جسم العدو . وانّ من ذاق هذه اللذة مرة أو
مرتين لا يستطيع الامساك عن البحث عنها بهوس
في المعارك غير مبال بالخطر . وزاد بما يؤيّد الرأي القديم
وهو ان الانسان ان لم يكن له من الدين ، أو من
الاخلاق الفردية ، أو من القانون وازعٌ وتمكّن من أخيه
فالضواري دونه فظاعة وحيلة في ابتداع أساليب
التعذيب . ليس للدفاع عن نفسه أو للانتقام والتشفّي
فحسبُ ، بل أحياناً للذة القسوة والايلام ، أو لمجرد
اللهو وقتل الوقت . وان أكبر آفات الحرب المشروعة
في نظره هي اطلاق تلك الغريزة الوحشية في الانسان
وتشجيعه على إرضائها وتشديدها بمختلف صنوف التشجيع

ان أهل المذاهب التدميرية يريدون للجميع ما حرم
على الاكثرين . فهم ككل اختصاصي لا يرون من

الاشياء سوى نقطة واحدة يحسبون بها الخلاص وبدونها الهلاك . والغاية عندهم تبرر الواسطة . وقد يوجد بينهم الثوروي الفاضل المدفوع بعاطفة حب الانسانية فتكون الاحوال وحدها مسؤولة عن حدته . وعما يأتيه أو يشير بأتيانه من الجرائم . لأن من الناس الصلاح لاخوفاً ولا طمعاً بل بنزوعهم الفطري إلى الصلاح نزوع الموسيقيّ الى الموسيقى والشاعر إلى الشعر . والرياضي إلى الرياضيات . ولكن أولئك أقلية صغيرة هي خميرة الدهور . والاكثرية الساحقة تحتاج إلى قانون يلجمها ويهذبها . ان الأنانية مصدر كلّ عمل ولا يعقل أن ينفع المرء ويجاهد لمصلحة الآخرين دون أن يفكّر في مصلحته الشخصية . وعندما يهتدي الى ذلك الموضع الحساس من حياته فكثيراً ما يجاهدُ لنفسه باسم الجمهور . ذلك لان الحسد يجاور الحاجة في الانسان وكما أن في قلبه جوعاً الى التودُّد والإعزار وتوقاً الى أن يكون محباً محبوباً ففيه كذلك قوة كبيرة للكره والتنافس .

فقد يتمرّد ويشكو ويثور لانهُ مظلوم يطلب حقهُ . وقد يفعل أيضاً لانهخامل تلهبهُ الغيرة ولا يستطيع الوصول الى مرتبة من هو فوقهُ . فيجرّب المشاغبة والنقض والحرق والتشنيع فان نال بغيته فذاك ، وإلا فقد حرم غريمهُ من النعمة وذاك في النفس المنتقمة سرور كبير . وحتى بين المتآمرين على الهدم ترى كلاً يشدّ الحبل إلى جهتهِ

حسن أن نعطف على التعساء وإن نتوجع للفواجع التي تمرّر حياة الآخرين وحياتنا أيضاً . حسن وواجب أن نسعى كل في بابهِ لإسعاد إخواننا وتحرير أنفسنا . على شريطة أن نعرف الطبيعة البشرية ونلمّ بكيفية معالجتها . إذ لا منفعة بحسن النية اذا هي قُرنت بالجهل . فمرض الولد وسوء أخلاقهِ كثيراً ماينتج عن حبّ الوالدة الجاهلة . وحبّ الدين مع التعصب أشعل المحرقات وأجرى الدماء. وحبّ الوطنية والانسانية عند روبسبير وسواه جزَّ أعناق النساء والاطفال والشبان والشيوخ . فهل جنت الانسانية

والوطنيةُ العقائد من وراء ذلك رقياً خصيصاً ؟

ذلك هو الانسان . وتعاليم الاديان الكبرى السبعة لم تصقل منه بعد عشرات الدهور . غير القشرة الخارجية . ونظرة الى أحوال العالم ترينا كبائر الطمع والحسد والنهب والتضليل حباً بالأذى وطلباً للسيادة سواء بين الافراد والافراد ، والجماعات والشعوب ، والاحزاب والدول . وان كان هنالك من يحب الانزواء والمسالمة بفطرته فمن ذا يكفي الناس شر الناس ، من ذا يكفي العقلاء شر المتطاولين إن لم يكن النظام وممثلوه ؟ أي نظام ؟ النظام الاجتماعي المقارب لنظام الطبيعة . فان عنصر الحياة نفسه تدفقٌ وانتظام معاً ، وإذا تعذَّر تعريف نوع النظام فهذا لا ينفي أن استبداد الفرد الواحد يؤثر على استبداد الجميع بالجميع

*
* *

اعترف بضعف هذا المنطق ووهن هذه الحجة إزاء

إغارات الساخطين. واعترف بضرورة الثورات أحياناً، ففي السلم لا تجرأ الافراد على العمل مهما رثّت الانظمة وبليت، وبعض المشاكل الاجتماعية لا يحلّ بغير هجمات الكواسر كما أن بعض الامراض المزمنة لا يُشفى بغير العمليات الجراحية، فعند وضع دعائم المستقبل على انقاض الماضي لا بدّ من قوةِ أولئك العتاة ووحشيتهم التي لا تتأثر لدموع النساء، ولا تخجل بضرب الفؤوس

تأتي الازمات فترى الامةُ نفسها عند هوةٍ فاغرة فينصح الحكماء والعقلاء بالرجوع الى الوراء والسير بتبصر حول حرف اللجة . ولكن المجموع يتدافع هدّاداً كالبحر فيقتحم الحواجز والسدود، وتقع منه الصفوف الاولى فتملأ الهاوية ويسير الباقون فوق الجثث . والانسانية غير ضنينة بابنائها لان قواها غير متناهية

الثورات ضرورية لجرف النظم البائدة ، الثورات ضرورية لتجديد القوى وإحياء الجرأة والاقدام. ولكنها

لاتنفع لغير ذلك . إن المذاهب الثورية من الاجتماع بمثابة الزعازع من الطبيعة والزلازل والطوفانات . ولئن كان لكل من هذه القوى فائدته في الخليقة رغم ما يجرّ من خراب ودمار فهل يمكن أن تكون مقذوفات البركان الفوّار نظاماً للساكنين حواليه ؟

كروبتكن : كروبتكن : أنت الذي كنت من أهل الوحي والرؤيا قبل ان تصير مليك المؤمرات السياسية ، وتناسيت مرتبتك لتمتزج بالشعب شاعراً بجوع الجائع ، ووحشة المنفي ، ويأس المحكوم عليه ، وعار المرأة الساقطة : أنت الذي عرفت أبهة بلاط القياصرة[1]

(١) كان كروبتكن مثل باكونين يحمل لقب برنس ولكنه كان رفيعاً بشخصيته لا بلقبه . لاسيما وان (برنسات) الروسيا لايزيدون أهمية عن (برنسات) ايطاليا أبناء اخوة البابوات أو (امراء) لبنان على شيوع الالقاب بينهم دون قانون شأنها فى البلدان الاخرى . وهذا اللقب ليس أرفع من (squire) الانجليزية ولقد سأل سائل فى العدد (٢٥٨) من « اللطائف المصورة » لمناسبة مقتل للبرنس سعيد حليم هل أمير معرب برنس وإذا كان لقب

واكرام المجامع العامية قبل أن تُسجن في الحصن المطلّ على نهر النيڤا وتهرب مجازفاً بحياتك الى حيثُ عشتَ فقيراً محتاجاً تبتاع قوتك بعمل يدك ! لقد أنكرت الباشفية ، فهل قضيت راضياً عن المذاهب الفوضوية ؟ هل ظَللت على يقينك حتى حافة القبر ؟ هل قضيتَ راضياً واثقاً بأن المستقبل لجماعتك ؟

وهمان كبيران يقودان الحياة : في أحدهما يحسبُ المرء نفسهُ حرّاً في العبودية على شرط ان تغير اسمها وشكلها — وان ظلّ جوهرها ثابتاً لا يتغيّر . وفي

برنس خاصاً بالعائلة المالكة فكيف كان بسمارك برنساً

والجواب أن أمير تعادل برنس دون أن تترجمها حرفياً. فان Princeps اللاتينية معناها الاول وهي تطلق على ابناء الملك المالك واحفاده فيقف اللقب عند ذرية معينة لا يعود يحمله سوى الولد البكر . ثم صار الملوك يهبون الالقاب منحة ومكافأة وكذلك صار بسمارك برنساً . أما لفظة أمير فكانت في البدء تطلق على من كان عمله الامر في الجيش . وما زلنا نجد أثرها في أمير الاي أو قائد الالاي وأميرال أي قائد البحر ألخ .

الآخر يعتقد المرء بصلاح البشر الفطريّ اعتقاداً مطلقاً. فهل تستطيع أن تقول الآن بعد ان شفّت بصيرتك بنور الخلود أيّ الوهمين أقلّ خطراً ؟ وأنت الذي كنت زعيم الوهم الثاني، هل تستطيع ان تنبئنا لماذا لا نفتأ نؤلم بعضنا بعضاً ؛ ولماذا ، ما دام الناس صالحاً ، قضيت أنت عمرك في محاربة « الصالحين » ؟

٩
يتناقشون

الاشخاص

السيدة جليلة — معلمة ميّ في الماضي . فطنـة ، معتدلة الرأي

ميّ — تلميذة السيدة جليلة وكاتبة مقالات « المساواة »

بلانش وانتوانت — فتاتان على أحـدث طرزٍ . رفيقتا ميّ في المدرسة تتكلمان الفرنسوية دواماً

عوني — نجل السيدة جليلة اشتراكيّ متحمس وذو قلب مخلص نبيل

عارف — أديب عرف النـاس وتألم فأدّت به المعرفة الى شيء من الجمود ولـكنه يخفي وراء مظاهر

القسوة والتهكم طبيعة حارّة صادقة خيّرة

الاستاذ سامي — عالم فيلسوف

سعيد بك — من الوجهاء ورئيس جمعية خيرية

زكي افندي — من المتأدبين، لا فكر لهُ أو له فكر يحجبه اعتناق كل رأي عابر وامتداح جميع الناس على السواء

الزمان والمكان

حوالي الساعة السابعة مساء في ردهة الاستقبال بمنزل والديّ ميّ

السيدة جليلة (وقد دخلت منذ هنيهة مع ولدها عوني، تعدّل جلوسها باحثة في سرها عن كلمة تبدأ بها الحديث شأن من يصل الى مجلس صمت فيه المتحادثون عند مجيئه. والآخرون ينتظرون ببعض الارتباك وراء علامات التأدب ليستأنفوا الكلام. فتبتسم السيدة

جليلة لميّ ثم تدير الطرف في الحاضرين وتقول :)

–كانت لهجتكم عند دخولي لهجة مناقشةٍ ومجادلة فأيّ المشاكل العالمية كنتم تحلُّون ؟ (يبتسم الجميع الابتسامة الاجتماعية المناسبة ويتململون)

ميّ – وصلتِ يا سيدتي عند احتياجي الى دفاعكِ عني . لقد كان هؤلاء السادة يحاولون أن يحلّوا بانصافٍ مشكلة التغاير والتفاضل التي لا تُحلّ ، أمّا والظلم حليف العدل في الانسان فكانوا يمرّنون ظلمهم عليّ

زكي افندي (مسروراً باغتنام الفرصة ليتكلم) أشهد الله العظيم انكِ أنت التي ربطّتنا جميعاً

السيدة جليلة – على ذكر التغاير والتفاضل أقول اني قرأتُ مقالاتك عن « المساواة » بمنتهى الاهتمام . وانتظر الباقي منها لأُدرك النقطة المعينة في فكركِ ، وقد هيأتِ من الاستنتاج والاستدلال ما هيأتِ لايصالنا اليها

ميّ – النقطة المعينة ؟ اذا دلّ بحثي على انّ

لديّ شيئاً معيناً أقولهُ فقد فشلتُ حتى وفي التعبير عن رغبةٍ ساقتني الى معالجة هذا الموضوع الجموح

سعيد بك — جاهرتِ في كلمة التمهيد باستعراض خلاصة ما تعلنـهُ الطبيعة والتاريخ والعـلم لتستخرجي حكماً مجرّداً من غير ما تحيُّز ولا اندفاع . أليس في ذلك تعيين لنقطة ما ؟

ميّ — بل في ذلك اعلان رغبة ومعاهدة اخلاص . ولـكن —

عوني — ولـكن — ؟

ميّ — ولـكن كم من رغبـة نبديها مخلصـين ونحسبها معقولة مقبولة ثم تمرُّ الايام فنـدرك غروراً تـكوّنت منهُ تلك الرغبة ، وحماسـة لا يشفع بها الاّ ذلك الاخـلاص : (تأمل قصـير) كيف زعمتُ ان استعرض خلاصة ما تعلنـهُ الطبيعة والعـلم والتاريخ ، وأيُّ إله أنا ليتبين لي ذلك ؟ (خجلى) ولـكني عوقبت بغروري نفسـه اذ اني بتوغلي في البحث ، تحـدو

بي أبداً تلك الرغبة الحارة ، كنتُ أزداد شعوراً بان ما أتلمَّسهُ من الخطوط التاريخية والعلمية والاجتماعيـة لن يوصلني الى شيء (ضاحكة) سوى الى تلقي رسائل التعنيف والتقريع من حضرات القراء الذين يريد كلٌّ منهم أن أذهب مذهبهُ وآخذ برأيهِ . (تعود الى التأمل) حسبتني مُقبلةً على موضوع لي أن أعالجهُ على ما أريد، فاذا بالموضوع يعالجني قاذفاً بي من تيار الى تيار ، ومن حيرة الى حيرة ، ومن لجـة الى لجـة . وهأنذا أردد سؤالا ألقيتهُ على نفسي مراراً خلال هـذا البحث : أين أنا الآن ؛ أين أنا ؟

عارف — أي انك تتساءلين : أين المساواة ؟ أين أعثر على خيال المساواة ؟

مي — قد يكون هذا معنى سؤالي. قد وسّعتُ دائرة البحث حتى ضاع فيها الخيال الذي أنشدهُ . أو ان الدائرة التي أزعمها وسيعة اختنق فيها الخيال لضيقها فحلَّق فوقي وفوقها هازئاً فلم أعد أراهُ وأسمع صوتهُ

بلانش (تتثاءب وتسأل رفيقتها بالفرنساوية :)

—عن أي شيء يتكلمون ؟

انتوانت — عن الشيء الذي كانوا يتكلمون عنه عند مجيء السيدة جليلة

عوني (هادئاً في الظاهر ولكنّ اهتمامه يبدو في نظره ولهجته) — أتريدين أن تامحي خيال المساواة ، أيتها الآنسة ، أتريدين أن تسمعي أصواتاً تناديها بلجاجة ؟ إذن اقفلي باب مكتبك وانسي ما كتبت عنها وما يكتبون ، ولا تكتفي بالنظر الى السابلة من وراء سجوف النوافذ فما تلك الحياة الظاهرة الاّ حاشية بعد صفحة الحياة . اتركي كلّ ذلك وانزلي الى ميدان الحياة السوداء حيث القلوب تدمي ، والعيون تدمع ، والقوى تضيع جزافاً . امتزجي بذوي الاطمار البالية ، جوعي مع الجائعين ، احتاجي مع المحتاجين ، واصغي الى الشكاوي والتوسلات تنطلق من بين شفاه الفقراء والمرضى والمحرومين انطلاق الدم من الكلوم البالغة .

تفحّصي عقولاً تطلب من المعرفة والنور غذاءً ولكن البؤس أقفل في وجهها أبواب المدارس ، وحرمها الكتب والفنون وجميع مشاهد الجمال والرقيّ التي أوجدها الفكر الانساني (بشيء من التحمّس) وعندما ترين كلّ ما يتمتع بهِ الكسالى الظالمون الذين احتكروا الصحة والهناء والرخاء لنفوسهم ، عندما ترين جهاد العمال وذكاءهم ونبل أعمالهم في الحرمان إذن لا تسألين « أين أنا من المساواة ؟ » بل تعلمين ان الطبيعة خلقتكِ لتكوني اشتراكية وعينتكِ لتوقفي قواكِ في سبيل الانسانية المرتفعة الى عظمة المطالبة بحقوقها

عارف (يصفّق ضاحكا) أعِدْ ، أعِدْ يا عزيزي عوني ، ليطول إعجابي بك : أؤكد لك انك بموهبتك الخطابية هذه المقرونة برأسك الذي يشبه بانحنائهِ رأس زعماء الباطنية في القرون الوسطى ، تستطيع أن تكون واعظاً دينياً مفلقاً يأتي بالخطب الرائعة في أتفه المواضيع الممكنة

عوني (يخاطبه بتودة وان ضمّنت لهجته لوما)

— أتسمي موضوع البؤساء والمظلومين والمحرومين المطالبين بحقوقهم موضوعا تافها؟

عارف (بشيء من التهكم) ومن هم أولئك البؤساء والمظلومون والمحرومون الذين ما فتئتم تتاجرون باحتياجهم المزعوم؟ من هم أولئك الذين تحاولون إقناعنا واقناعهم بأنهم تعساء وان لهم حقوقاً؟

سعيد بك — سلني أنا، أيها الفتى، فمركزي في الهيئة الاجتماعية والوظيفة التي أشغلها في جمعيتنا أرتني ما لم يرهُ الآخرون. البؤساء والمظلومون والمحرومون هم المرضى والعجزة الذين لا ملجأ لهم. هم الارامل واليتامى الذين لا عائل لهم. هم الآباء الذين فرغت أياديهم وبيوتهم ولا عمل منه يرزقون. آه، لقد رأيتُ ما يفطّر القلوب

عوني (تزعجُه هذه الاوصاف التي لا أثر فيها لسند الاشتراكية الاعظم) — المحرومون هم خصوصاً الذين

يعملون ليل نهار ليديروا حركة العالم. ويستغلوا موارد الثروة ، ويقيموا بهجة العمران فتتنعّم طائفة المحتكرين والانانيين على حسابهم

زكي أفندي (يحبذ هذا الكلام كما يحبذ كلّ كلام) — صحيح. صحيح

عارف — لقد سمعنا هذا مراراً وتكراراً. فهل من جديد ؟

عوني — الحاجة واحدة لا تتغير ، والفقر قديم لا تنوُّع فيه . البؤساء والمظلومون والمحرومون هم البؤساء والمظلومون والمحرومون . أفهمت يا عزيزي ؟

عارف — طبعاً فهمتُ . فهمتُ وقنعت . أنا الفاهم رغماً عنهُ . (يضحك) أنا المقتنع رغماً عنهُ . ومن ذا الذي لا يقنع بهذه الحجة المفحمة ؟ (ينقلب جاداً فجأة) ولكنّ الحجة لا تفلح في الاقناع وإلاَّ أقنعتكم أن تدَعوا الناس وشأنهم ولا تشجّعوهم على الوقاحة والتطاول يوماً بخطبٍ رثائية وبحيل كاذبة مغلوطة يوماً

سعيد بك (ينظر اليه من أعالي ثقته بأنه رئيس جمعية تعول المحتاجين) يظهر يا ابني ، أدامك الله راتعاً في بحبوحة الهناء . انك قضيت عمرك سعيداً رغيد العيش فلم تذُق أنانيتك ذلَّ الحاجة والجهاد كما انك لم تبتهج بلذة الاحسان ومسح دموع الحزين

عارف (تتجمع أفكاره على فكر واحد فيشتعل وجهه وتتألّق عيناه) وكيف عرفتَ ذلك يا سيدي ؟ من يدريك اني لم يكن لي يوماً مثل سذاجتكم هذه — عفواً عن هذه الكلمة الجريئة ! من يدريكم اني ما تحجّرتُ إلاّ لأن الناس استغلّوا ليني حتى امحق ، وعالجوا عطفي حتى الاستنزاف ؟ انكم باسم الاحسان تبتزّون المال من الاقوياء النشيطين كما تبتزونهُ من الكسالى المترفهين لتعطوا الذين لا حقَّ لهم به فتنسون ان في ذلك تملقاً للخمول وتحبيذاً للمذلة ، وتنسون ان المرء إذا كان لهُ من يعوله مجاناً قلّ اتكاله على نفسهِ وفرغ عقلهُ إلاّ من الانحطاط والدعوى

سعيد بك (مشفقاً على الذين لا يفهمون) — لو كنتَ أباً وكان ابنك عرياناً ، لو كنتَ زوجاً وكانت امرأتك جائعة ، لو كنتَ ابناً وكانت أمك مريضة وفقرك يحول دون الطبيب والدواء ، ولو كنت فتاةً وحيدة دون أهل والدراهم حاجتها لتبتاع ضروريات العرس إذن افهمتَ معنى إغاثة الملهوفين

عارف (يصغي الى هذا الكلام بانتباه وكأنه يولّد فيه صوراً يتناقض أثرها في نفسه ثم يرفع رأسه ببطء) — اني أنحني أمام الحاجة الصميمة ويأخذني الخشوع امام الالم الصادق . ومن هذه الوجهة أقدّر أعمال الجمعيات الخيرية وأرى فيها تمهيداً لجمعية مقبلة كبرى تحتضن الذين يُلزَم المجتمع باعالتهم . ولكن (يهبّ فجأةً كأن سوطاً ألهبه) ولكنّ ما لا أحتملهُ هو ان الذين لا يخجلون دنّسوا بحقارتهم حتى معنى الالم العظيم ، واتخذوا كلمات الاستعطاء وأسماء اليتامى والاطفال والجائعين إعلاناً فعّالاً لتموين الكسل والمعايب . صارت

دعوى الجوع والعري مرسحاً من مراسح التمثيل وأسلوباً من أساليب النصب والمضاربة . لقد رأيتُ دموعاً كاذبة في العيون المتوسلة . وسمعتُ المحسن اليه يلعنُ الكريم الذي أعطاه بلا حساب . وشهدتُ حوادث الاحتيال تتتابع للضحك من البلهاء والتطاول عليهم . رأيت ذلك ففهمتُ ان للمساعدة المجانية أغلاطاً فادحة وان أعمال البرّ كثيراً ما تُنتج شراً

السيدة جليلة (مصادقةً على ما في كلام عارف من الاصابة) — صدقتَ يا عارف أفندي ، فان دعوى الحاجة كثيراً ما جففت قلب الكريم فسدَّته حتى أمام العوز الاكيد ، ونكران الجميل من أفظع ما يُحتمل

بلانش (تهمس لانتوانت بالفرنساوية) — عارف لطيف لا بأس بهِ ، أتعلمين ؟

انتوانت — لا بأس به لولا ان حذاءهُ كثير اللمعان . ليس من المعقول ان حذاءً يشعّ من تلقاء نفسهِ على هذه الصورة . ومن عيوبهِ انه يتكلم (محاولة

اتقان اللفظ بتهكم أنيق) بلغة الحاء والخاء والعين

عوني — مع تقديري لخدمات الجمعيات الخيرية أقول اننا في هذا العصر نأبى استماع كلمات الاحسان والمحسنين . لقد ملّ الناس فضل الناس كما ملّ المتفضلون التفضُّل . والانسانية التي تبذل حياتها في سبيل الانتاج لا تمدُّ يدها للاستعطاء لانها تعلم ان المسؤولية تنيلها حقوقاً ، وهي بتلك الحقوق تتذرّع لتعمل على توطيد المساواة . لقد ذكر عارف تمثيل الالم وتحمُّل الاحتياج ، وما الدافع اليهما سوى هذا النظام الذى يسمّن قوماً ويهزل قوماً . فيعمد المحرومون الى أية الوسائل ليتمتعوا . النظام القائم مبعث الشرور وخالق الكذب والغش والتهجم . استبدالهُ بنظام يسوّي بين الجميع تختفِ المعايب والمفاسد والمخازي التي لم يوجدها سواه

عارف ـ ما سمعتكَ متكلما . ياصاحبي عوني ، الا رسخ اعتقادي بانك ولدت لتكون رئيس مدرسة اكليريكية تهيئ المرسلين للوعظ والارشاد . . . إذن

كيف تفسِّر النصب والاحتيال من الغنيّ السريّ ؟ إن في النظام القائم لعيوباً جمة يتحتمُ إصلاحها . ولكني بينه وبين الليمان العالميّ الشامل الذي تعدنا به الاشتراكية مترددٌ . ويكاد يكون ضلعي معه . إن المساواة التي تطالبونها بجلجلة وضجيج موجودة في العالم ولكن العقول المتنوعة لا تدركها على نمطٍ واحد ، وهي الطبائع المختلفة التي تنبذها هنا وتحضنها هناك . في مدرسة واحدة تتخرّج أجيال الطلبة فينبري واحد منهم ينتقل اسمهُ وفكره على جناح الدهور ويظل مئات رفاقهِ بين التوسط والخمول متراوحين . هواء واحد تنشره الطبيعة فيقضي على أناسٍ ويحيي أناساً . قانون واحد يفسّره من المحامين مئات وألوف فيكون في يدّ الفذّ براءة امرئ تألّبت لاتهامه القرائن . عوَزٌ واحد يعضُّ الجماعة فيتشدد به العبقريّ ويسمو بينا الآخرون يظلُّون في هوة المذلة والشكوى . فرصة فريدة تسنح لأخوين فيستفيد بها الواحد ويفيد ، ويهبط بها الآخر ويؤذي .

وتعودون بعد ذلك الى المناداة بالمساواة ؟ أما ذكرت في الحكايات القديمة كيف تملأ الغرف التسع والخمسين الآلات المختلفة والاسلحة والامتعة الثانوية . ولا يوجد الشيء الجوهري الاّ في الغرفة الستين ؟ ذلك شأن الناس، اذ ليست جميع الاقفال لتخفي كنوزاً وان أخفت أشياء لها أهميتها النسبية

زكي أفندي ـ صحيح يا ناس . كلام جميل في محله

عوني ـ ليست الاشتراكية مسؤولة عن إيجاد النبوغ في الافراد ولكنّ غايتها تمكين كل فرد من إنماء مواهبه الطبيعية الى حدّها الاقصى والتمتع بثمرة أتعابه على ما يحتاج . ان شركات الاحتكار وطغيان رأس المال يرهق بني الانسان، ومزاعم الدول وتكالبها على الاستعمار ضيَّق الحياة على السائد والمسود جميعاً جاعلا أبداً امام عيونهم شبح الحرب الهائل . وهذا المرض الفعّال لا يشفيه سوى عملية الاشتراكية التي تلاشي استغلال الافراد والجماعات. فتتكاتف الدول والاجناس، وتظهر

العبقريات الكامنة آتية بمختلف الاختراعات والاكتشافات في العلوم والفنون، وتستخرج من الارض خيرات جديدة لخير الجميع . فلا نعود نرى الاكواخ قرب القصور والموت جوعاً قرب البذخ والترف . إذ ذاك ينفذ في العالم أجمع ذلك البند النظري الذى وضعته الثورة الفرنساوية : « خُلق الناس أحراراً متساوين »

زكي افندى ـ وهذا أيضاً كلام جميل ياناس ...

عارف ـ بل اذ ذاك يزيد التفاوت ظهوراً ... آه ليتك يا صديقي تنفث فيّ شيئاً من إيمانك وقبولك لتلك المعاني المتماسكة المتنافرة كشيء تقرر وقوعه . ان الثورة لم توجد نظرية المساواة لان المساواة كانت نافذة بين الاشراف الذين كانوا يعاملون بعضهم بعضاً كأشباه متماثلين . ولكنّ ذلك البند أراد التسوية بين المراتب امام القانون لا غير . وقد ألحقوه باستدراك خطير اذ حرموا من تلك المساواة القانونية القُصَّر والنساء والمجانين والمحكوم عليهم . فيكون المتساوون والحالة هذه أقلّ

من نصف الامة . فأين المساواة ؟

عوني — وليس ذلك بالشيء القليل في دولة خرجت مباشرة من دور الملكية والارستقراطية . وتلك التسوية القانونية برهان جليل على أن المساواة حلٌّ للناس ، وأن لابناء الاجيال الآتية أن يتناولوها بحقوقهم وينشروها قانونية واقتصادية واجتماعية بين إخوانهم أجمعين

عارف — والحرية ؟ والعدل ؟ ماذا تفعل بالحرية والعدل اللذين هما من أقدس معاني الانسانية ؟ كيف تسوّي بين العظيم والحقير ، بين العبقريّ الذي تقتله هذه المساواة والابله الذي تفسده ؟ ألا تذكر كلمة سكينة قبل موتها : « أني أفاخر بان أموت شنقاً موت الرجال ! » كذلك فهمت سكينة المساواة ! وكم بين النساء والرجال من سكينة : وكم بين الناس من جانٍ لا عن حاجة بل لأن الجناية غريزة فيه : بل كم بين الفقراء من حكيم قنوع لا يطلب أكثر من سترة الحال ؛ انَّ

جرمكم الاكبر أيها الاشتراكيون في تجاهلكم الطبيعة البشرية وحسبان الانسانية محصورة في الطبقة العاملة . تحسبون أنفسكم منزهين عن وراثة بني الانسان وتريدون بتلك المساواة الآلية أن تضمنوا القوت للجميع بكمية متعادلة لتقتلوا ما هو فوق القوت ، لتقتلوا التفوّق عن طريق المباراة التي كانت وستظلّ دواماً الحاثّ الاعظم . ألا ان السرّ في البذرة لا في الارض التي تُحرَث وتُهيأ . وذكاء الناس وقوّتهم نار كامنة تحتاج الى النضال ، تحتاج الى احتكاك الحديد والصوّان لتقدح شرارتها . وهل كانت تستطيع العمل ملايين الايدي لولا العبقرية الواحدة التي كشفت سرًّا من أسرار الطبيعة ؟ فكيف تريدون أن تسوّوا بين ذلك النور الالهي في فكر ، وبين عمل يدٍ عملا ميكانيكيًّا لا إجهاد للعقل فيهِ ؟ بل كيف تزعمون أن الرخاء ينمي النبوغ بينما نرى ذوي النبوغ غالباً من الفقراء والمعوزين ؟

عوني (يبتسم بطيئاً) — يفكهني أنك تناقض نفسك ، وأنك أنت المعارض للاشتراكية من أعظم المعترفين بضرورتها

عارف — أنا أعارض الاشتراكية ؟ أني من أوّل القائلين بانصاف العمال ووجوب الاصلاح ، وان للاشتراكية المعقولة دوراً لا بدّ أن تمثلهُ . ولكني أقول باستحالة المساواة التي لا ينتج عنها سوى الظلم والتهويش ، وطعن الحرية طعنة جديدة . الناس في الحياة متساهمون ، ولكنهم غير متساوين في براعة التصرّف باسهمهم . والضغط الى درجة معينة على القاصر والجاهل والشرير خيرٌ للمضغوط عليه ولمحيطه جميعاً . أما الضغط على الرفيع الحرّ الكبير فجناية عليهِ وعلى محيطهِ . في العالم اليوم آلام وفواجع لا تُطاق وستؤاسى على وجه ما . ولكني أقول ان الاشتراكية لن تنجح أكثر من النظم السابقة لانها نسخة جديدة منها كما ان جميع

المعاجم الجديدة نسخ عن المعاجم القديمة . لن تنجح اكثر من النظمُ السابقةوستأتينا بويلات مستحدثة . ومما ينذر بتلك الولايات اختلاف زعماء الاشتراكية فيما بينهم . لانهُ ايًّا كانت النظم والهيئات الحاكمة فما يجب الالتفات اليهِ في تنظيم المجتمع هو الفروق القائمة بين الناس . لا وجوه التشابه بينهم . وهل يصيرُ الصغارُ أقلّ صغراً اذ انكمش الكبار الى مستواهم ؟

عوني — نحن لا ننكر أن بين الناس فروقاً وان كلاً من الناس ميسَّر لعمل ما . ولكننا نريد ان نقلل من من جور الطبيعة ونسهّل الحياة للجميع . نريد اصلاح ظلم الصدف جهد المستطاع . نريد معالجة الامراض البشرية ما أمكن ، ونريد ادخال الجميع ميادين الرقي والنور لتنال الانسانية سعادة مافتئت تجري وراءها منذ فجر التاريخ

عارف (يبتسم مشفقاً) — ما أقرب تحوُّل الارض الى سماء عند الاصغاء الى اخواننا الاشتراكين ! وما أسهل حذف المرض والانفعال والموت : قل لي ياعونى ،

هل تلاشون من قلب الانسان الشوق الملهب الى الحبّ والكره القتّال المدمر الذي لا حدّ له ؟

بلانش (لانتوانت بالفرنساوية) — ماذا يقول عن الحبّ ؟ افٍّ ما اطول هذه الجلسة !

عارف (متمماً دون ان يسمع كلام بلانش) — وهل تلاشون لذة الحرب ، والشغف بالحرب ، وفنون الحرب في مظاهرها المختلفة ؟ اتقتلون الامل ؟ أتقتلون القنوط ؟ أتفعلون كلّ ذلك لتأتونا بسعادتكم الموعودة ؟ وهل من سعادة بعد محق جميع تلك العناصر المكوّنة كليّة السعادة . . . ؟

مي (مخاطبة الفيلسوف المصغي الى هذه المناقشة باهتمام وسكون تام) — لماذا لا تُسمِعنا صوتك يا أستاذ ؟ لماذا لا تفضي الينا ببعض ما يفيضهُ الوحي عليك في خلواتك ؟ (يبتسم الفيلسوف ابتسامة مبهمة صغيرة . مي تطلب بالحاح :) قل لنا رأيك ! اذكر لنا الطريق التي على الانسانية ان تسير فيها لتفوز بالسعادة المنشودة

الاستاذ سامي (يبتسم ابتسامة كلها عطف) — البحث عن السعادة ! ربما كان هذا ضلال الانسانية الاكبر

مي — وكيف ذلك ؟ انك تسلبنا أملاً جميلاً ، يا أستاذ

الاستاذ سامي — ان للانسان حقاً في البحث عن الامر المستحب لاسيما اذا كان واسطة لنموه ، ولكن التاريخ يرينا ان الانسانية الى اليوم مريضة. مريضة باطماعها وأشواقها وحاجتها وطبيعتها ، ومرضها هو الحياة بعينها . فتتقلب على فراش المرض بتغيُّر النظُم وتبديلها حاسبة بنومها على هذا الجانب الراحة والطمأنينة ، أوالسعادة إذا شئتم . فلا تلبث دقائق او اعواماً حتى تشعر بالتعب كالاول فتتقلب على الجانب الآخر ، أي انها انما تغير النظام . وهي كذلك الى الابد

زكي افندي (معجباً دهشاً) كلام الاستاذ

استاذ الكلام : (باسطاً ذراعيه بافتتان) دام فضلك ينبوعاً نستقي منهُ يا أستاذ : (تدق يده بكتف انتوانت التي تتبعد مستاءة) آه ، بدون مدموازل : كيف بدرت مني هذه الاساءة ؟ ما أجمل هذا الثوب وما أدق ذوقك : (تحدث حركة بين الحاضرين فيتململون للنهوض)

أنتوانت (متثائبة) — حقاً ان من الرجال من هم بلا لطف ، كأنهم لا يشعرون بوجود السيدات والفتيات معهم . لن ازور ميّ بعد هذه المرة الا يوم تكون وحدها ، أو يوم يكون المجتمعون اقلّ ثقلاً وغطرفة (تنظر بدلال الى تطريز ثوبها)

بلانش (ضاحكة) — مع ان زكي افندي امتدح جمال ثوبكِ وحسن ذوقكِ

انتوانت (ضاحكة) — هذا لا أريد منه إطراء ولا ثناء . (تضحك مزيج بشيء من الألم) لقد عرفت [illegible]

يمتدحني فعل ببلاغةٍ واذا اراد ان يذمني ذمّ بكياسةٍ واناقة

بلانش (وقد نهضت كما نهض الجميع للانصراف واشتبك الحديث بينهم . تضحك من كلام انتوانت)

— ولكن لاتستطيعين ان تقولي ان هؤلاء الرجال الثلاثة غير اذكياء ؛ فلوخُيرتِ بينهم فمن تختارين ؟ الفيلسوف بأسرار عينيهِ وابتسامتهِ المتمنّعة ؟

انتوانت — كلاّ ؛ هذا قديس لا اريد اكثر من ان اشعل امامهُ شمعةً وأضع طاقة أزهار

بلانش — اذاً عوني ؟ أو الآخر ؟

انتوانت — عوني ؟ هـذا الذي يريد ان يُوزّع ما عند الواحد على جميع الناس ، كما يقولون ؟ تأملي حالي اذا هجم يوماً على ثيابي وحلايَ ليفرّقها على نساءٍ لم يتعبنَ بابتياعها ؟ تأملي حالي اذا تبرَّع بثوبي الازرق ، ثوب الرقص . . . لا لا ؛ هذا لا اريدهُ

بلانش — بقي الآخر

انتوانت — هذا يقوم جذاءهُ اللمّاع بيني وبينهُ سداً

منيعاً؟ كيف لا اهزأ برجل صغير القدمين إلى هذا الحدّ؟

(تضحكان ويمتزج صوتاهما بالاصوات الاخرى)

عارف (متمماً حديثه مع الفيلسوف) — ان كلامك ليعبر عن كثير من افكاري يا استاذ ، واعتقد ان اختلاف الكائنات الحية وتغايرها شرط اساسيّ لكل نموّ وكلّ كمال نسبيّ . وما هو تنازع البقاء،ذلك المصدر الفياض للتنوُّع والثروة الحيوية ، ما هو إن لم يكن في تطوره اثباتاً مستمراً للاختلاف والتفاوت ؟ وظهور الفرد الموهوب تحريض للنوع باسره وحثّ سريع لجوج.

(يختفي صوته وراء جلبة التحيات)

السيدة جليلة (مودعة مي) — إلى الملتقى يا ابنتي. مهما احتدم الجدال فمثل هذه الاجتماعات يشحذ القرائح، وأحسن ما يوحيه الينا كاتب أو محدِّث هو أن ننتهي من الاصغاء أو المطالعة وفي نفسنا استفهام جديد . لقد سررتُ بهذا الاجتماع كثيراً

انتوانت (الى بلانش بالفرنساوية دواماً) — هيا بنا مع السيدة جليلة

عوني (مودّعاً) شكراً . أيها الآنسة . واسمحي لي أن أردد التعبير عن ثقتي بأنك منضمة الى صفوفنا بحكم فطرتك ونزعتك الفكرية . بي اقتناع بأن السعادة النسبية ممكنة لبني الانسان. لا سيما وان فكرة الارتقاء والسعادة هي وليدة العصور المتأخرة بعد أن تعاونت الاديان والفلسفات على اقناع الانسان أنهُ دودة صغيرة تتمرغ في التراب امام وجه الخالق .. والثورة أبدع مظهر من مظاهر الاستياء ، وشرف المرء قائم في الاستياء من الرث البائد والبحث عمـا يفضلهُ . شرف الانسان قائم بانصاف الآخرين كما ينصف نفسه . والنفوس الكبيرة قلقة أبداً لا ترضيها غير اللانهاية

عارف (يدفعه بكوعه دفعة خفيفة) — وهكذا تبدأ بالوعظ والارشاد وتنتهي بالوعظ وارلاشاد . الحياة بحر ، ياصاح ، تتدافع فيها الامواج واللجج والانظمة

والثورات . واذا استُبقيت أنظمة أكثر من سواها فلأنها أنفع للناس وأصلح . ولكن السعادة ليست غايتها ولا الكمال كعبتها . ما غاية الانسانية الاّ الانسانية، وما كعبة الحياة إلا الحياة . أليس الامر كذلك ، يا أستاذ ؟

الاستاذ سامي (بصوته الهادىء) — كما تدور الاحقاب تدور الانظمة ، والبقاء للذي لا يموتُ ولا يتغير (يخرج ووراءه زكي أفندي يمتدح كل واحد بدوره)

مي (تودع الزائرين وتعود الى الغرفة الخالية حيث تتراجع أصداء الاصوات التي تكلمت هناك منذ حين . وبعد اطفاء الانوار تخرج إلى الشرفة تحت القبة المدلهمّة . تسند رأسها الى الحائط وتفكر صامتة ثم تبسط يديها نحو الفضاء ، نحو خيالات الاشجار ، نحو أشعة النجوم ، نحو هدير الاصوات وهدوء السكوت وتقول بلهجة المبتهل :)

— هاأنذا وحدي أيها الليل فافهمني ما عليّ أن أدرك ! هاانذا مستعدة أيها الحياة ، فسيّريني حيث يجب أن أسير !

(الستار)

١٠
رسالة عارف

الى مي

وأنا أيضاً كالسيدة جليلة تتبعت مقالاتك عن « المساواة » . فرأيتكِ تارة تهيمين بين الانقلابات العمرانية وطوراً تهبين لتطلقي في أحد فروع الموضوع حكماً جزئياً لم يكن ليتوقع سواه قارىء أوّل فصولكِ عن « الطبقات الاجتماعية » . بل لا يتوقعه سواه ذو عينين تبصران ولُبٍّ يعقل

خططتِ العنوان وأدرتِ الطرف في ما حولك فشاهدت تعدد الموجودات وتمايز الانام فنقلت قسراً تلك الصورة المتجدّدة في البرية — صورة التطوّر من أدنى الكائنات الى أرقاها ، وخضوع الوحدات الصغيرة

للوحدات الكبيرة ، ووجوب الفناء لإستمرار البقاء وهو الغاية المثلى التي تضمحل في سبيلها الصور والاجيال

كذلك قرأت باهتمام تدوين مناقشتنا الاخيرة منتظراً منك الحكم النهائي. ولقد ذكرتِ انك شكلت من قوالك « هيئة محلفين » ولكن نسيت أن مثل تلك الهيئة لاتنهي القضايا على الوجه الذى اخترتِ وإنما عليها أن تهيء حكماً ما ، للدائرة العليا نقضه أو إبرامه

بيد أني أفهم أن الابحاث التاريخية والمواقف الادبية هي غير المحاكم والقضاء ، وأفهم كل الفهم معنى ابتهالك لليل والحياة . ولكم ناديتُ الليل واستغثت بالحياة عند التباس المسالك واشتداد الخطوب ! ولكم أحبطني العيُّ والقنوط عندما جاءت الوقائع تكذّب ما أنا في حرارة إخلاصي عضدته وعززته ! فعقب فشل آمالي الشك الاليم وصرت أود سحق المخادعة والرياء سحقاً . أما التحمس الصادق فله مني مزيج اعتبار وشفقة . لذلك أقدّر تحمس عوني وأشفق عليه جميعاً — وان حاولت اخفاء مشاعري

وراء نبرات التهكم والمناوشة

لقد تألم صديقي شديداً ، وكيف لا يتألم في محيطنا الانانيَ من كان لهُ من عوني رقة العواطف ونبل الفكر وسموّ الميول : غير أن المهُ ناقص لانهُ جاءهُ من فئةواحدة من الناس : فئة العظماء والاغنياء والاشراف . فتخيل أن الرذيلة تحصَّنت في القصور وأن الفضيلة استوطنت الاكواخ . وحسِب السعادة حيث الرغد ، والتعاسة حيث الشظف : ولم يفهم الحرمان بغير معناهُ الظاهر . ومن هنا مبعثُ خطإِه وتحمُّسه معاً

وكنت في البدء مثلهُ هو وجماعته ارى الحاجة كل الحاجة في فراغ اليد فأُنادي بالمساعدة دون حساب ، وأتمنى ان يكون لحمي للجائع قوتاً ودمي للظامئ شراباً . والخلل حولي كنت أظنه خللاً فيّ فقط . وزعمتُ جميع النفوس من درجة واحدة فمضيتُ أُجاهد لاعلائها الى اوجٍ فَطنتهُ تلك النفوس القليلة التي وضعتها الحياةُ على طريقي فأثار النبل منها احترامي واعجابي

شببتُ فاذا بي مخطىءٌ ، وان ما فيّ من خلل منشأهُ الطبيعة البشرية المتوازنة أجزاؤها نقصاً وكمالاً . ورأيت أن أنانيةً تسربلت بالحرير ليست باطمع من أنانية ارتدت الاطمار ، وان كبرياء بدَت في التشامخ والصمت والتألُّه ليست با كره من كبرياء توارت في التذلُّل والتوسل والنحيب . وتبينتُ في كلّ مرتبةٍ اثرةً وتحيزاً واستعداداً قصياً للجور والطغيان ، بل تبينت ذلك في كل فردٍ من أفراد المرتبة الواحدةوالاسرة الواحدة . وعلمت أن بعض العقول قفرٌ ، وبعض القلوب صخر ، وبعض النفوس رموز حيّة لليأس والنكد ، وبعض الصور البشرية انعكاسٌ لتمثال الشقاء الدائم . وأدركت للحرمان معاني جمة

لقد تيسرت معالجة العوز المادي فتنظَّمت الجمعيات الخيرية تطعم الجياع ، وتكسو العراة ، وتعلم أبناء الفقراء . وها جمعيات التعاون تحرّر العامل من تحكُّم صاحب رأس المال — أعني أن الادوار تبدلت وأن التحكم صار

الآن للعامل . ولكن أي جمعية وأي شيوعية ترغم
الطبيعة على بسط يدها ان منعت، وتغيير نظامها ان جارت ؟
هاك زهرة نضرة في حقل الشوك والعليق ، فما ذنبها ؟
هاك شجرة فريدة وسط الصحراء ، فلماذا تشقى ؟ كلٌّ
يرحم من قضى جوعاً ولكن مَن ذا يرحمُ قلباً جائعاً إلى
الحبّ العظيم ، وفكراً ليس له من يفهمه ويقدرهُ .
ونفساً طويت على الحنان وبذل الذات تترقّب مجيء مَن
تسعد بالتضحية لاجله فلا يجيء ، كأن نهر الاعمار جرفهُ
في تيّار قديم ؟ أيّ تفطّر لمن صانع فلم يكافأ بغير التهجّم
ونكران الجميل ، أيّ تعاسة لمن لا يؤذي الناس متعمّداً
فيُحرم الصحة مثلاً ، أو النظر ، أو النطق ، أو يُسلَب
عزيزاً ؟ وذاك الوالد الصالح الرصين ، لماذا ابتُلي بولد
مستهتر أبله ؟ وذاك الثريّ المحسن لماذا يُحرم هو وزوجته
نسلاً قد يحسنان تنشئتهُ بينما ذلك السافل الشرير
يستعمل أسماء أبنائه آلة للاحتيال وارضاء الاهواء ؟

هذه حرمانات قليلة من حرمانات عديدة خرساء

لا اسم لها . ولقد قال بركليس زعيم الديمقراطية اليونانية « عندنا لا يخجلُ أحد بفقره ، وانما يخجل إذا هو لم يكافح الفقر بالنشاط والعمل ». فاذا تيسَّرت معالجة الفقر ، ولو معالجة نسبية ، بالنشاط والعمل ، فكيف تُعالجُ حاجات أُخرى ليس لموهبة أو صفة مهما شرفت وسمت ، أن نتغلب عليها ؟ وما هذا النظام الذي يزعمون فيه الانصاف والمساواة . وهو لا يتناول سوى الظاهر الممكن تعديلهُ بلا سلبٍ ولا فتك — في حين تظلُّ جميع الحرمانات الاخرى تنشبُ في القلبِ أظفارها ؟

قد تقولين الآن أن اليأس من شفاء المرض الواحد لا يبرِّر اهمال المرض الآخر ، وهـذا صحيح . وقد تقولين ما ينسبهُ اليّ بعض اصحابي الاشتراكيين ، وهو اني ارستقراطيُّ النزعة وان أحكامي العامة تقوم على اعتبارات خاصة . أمّا اني ابني احكامي على مشاهدات شخصية فأُسلّم بهِ ، وأودُّ أن أسأل كلّ ذي رأي ، بل

أودّ أن أسأل الذين سنّوا الشرائع والانظمة . وكوّنوا الجمعيات والاحزاب ، وأحدثوا الثورات والاصلاحات — أود ان أسألهم هل يمكن الاقتناع بغير الاختبار الشخصيّ وهل يكون اليقين يقيناً إن لم يُبنَ على اقتناع فرديّ ؟

وأما ارستقراطيتي المزعومة فينقضها اني أكادُ أرى رأي ذلك الكاتب الامريكاني الذي اثبت بالادلّة التاريخية أن أكثر رؤساء الولايات المتحدة ورؤساء الجامعات في هاتيك البلاد ، ومديري المصارف والشركات ، وزعماء الاحزاب — ان أكثرهم ينتسبون الى شرلمان ملك الفرنسيس . وأقول معه أن الشعوب المختلفة لو عادت مئات السنين الى الوراء لوجدت جدوداً واحدةً وسلفاً واحداً . فنكون جميعاً أبناء ملوكٍ ، وان تاهت منا الاسماء خلال تشعُّب الانساب . ومع تسليمي بصدق الوراثة على قياس خمسين في المائة تقريباً ، فاني اذكر كذلك الامتيازات الفردية التي لم تجعل الامبراطور ماركس أوريليس انطونيوس أعظم من أخيهِ في الرواقية والنبالة

الاخلاقيـة . العبد ابكتتس . واذكر ان أمونيوس ساكاس مؤسس الافلاطونية الجديدة التي ربما كانت أكبر مدرسة فلسفية عرفها التاريخ — كان حمّالاً . وان فاراداي أحد أعاظم العلماء المكتشفين كان ابن معدمين وحصّل قوته أعواماً طوالاً من بيع الصحف ، عاري القدمين في شوارع لندن . وهلمّ جرّا

لقد تألمتُ في حياتي لامور كثيرة ومن مختلف المراتب ، وتألّمت من مجموع الوارثات المتجمعة فيّ التي اسميها « نفسي » . وأعرف من جهة ظلم المجتمع ، وظلم الحياة من جهة أُخرى . واني لمن الصائحين عالياً بالثورة على كثير من الانظمة والعادات والاصطلاحات كما اني من الصائحين عالياً بوجوب الامتثال لأنظمة أُخرى وقبول عادات واصطلاحات موافقة في تقديري . أعرف الحياة صالحة محسنة جميلة من الجانب الواحد ، وخادعة غادرة قبيحة من الجانب الآخر . إلاّ اني « زردشتيّ » من حيث إيماني بان الغلبة النهائية للخير والصلاح والجمال . ولو

أردتُ أن أعرّف الحزب السياسي أو الاجتماعي الذي أنتمي اليـه ، لقلت اني ارستقراطي — ديمقراطي — اشتراكيّ ساميّ — اشتراكيّ ثوري — فوضوي — عدميّ — الى آخرهِ . كل ذلك دفعـة واحدة وبوقت واحد . واذا خطر لكِ أن تضحكي ذكّرتكِ برينان الذي كتب يوماً آتوني بصفحةٍ لأحد كتّابنا فابرهن لكم انه في السطور العشرة الاولى ذو نزعة تختلف عن نزعته في السطور العشرة التالية ، كما تختلف هذه عن السطور الاخرى . وما ذلك إلاّ لأنّ جميع النزعات موجودة في كلٍّ منا وان تغلّبت احداها على الاخريات . وهذا التغلُّب وحده هو الذي يبرز منوّعاً في مختلف الافراد فيسم الواحد منا بوسمهِ ، ويضع له العنوان الذي يُعرف بهِ

لو كنت ذا كلمة مسموعة بين حكومات العالم لجعلتها تعرض عن اصطخاب الاحزاب التي خلق كلٌّ منها لنفسهِ بياناً ذا الفاظ يتمثّل فيها قرع النواقس ، ودويّ المدافع ، وخفوق الاعلام ، وتنضيد الاعلانات ، وحفر الخنادق ،

وحركات الهجوم والدفع . كلهم يشكون الظلم وكلهم ظالمون . كلهم ينادون بسقوط الجاني وكلهم جانون . لكن أولئك الظالمين الجانين مظلومون أيضاً بحكم الوراثة والاحوال والقَدَر . فهم لم يخلقوا أنفسهم مختارين بل خلقتهم حوادث دهرية لم يكن لهم فيها يد ولها فيهم كل النفوذ . ولقد طال جهاد الانسانية للتحرُّر من ظلم ما ورثت من غرائز غير مدركة كما تطلب التحرر من طغيان الطبيعة ، واستبداد الاقوياء ، وبطش السلطات ، وسفالة الجبناء ، وحسد الخاملين . فصرنا اليوم في عصر الكلام الرنّان تتلاطم فيه ألفاظ « الشرف والعظمة والحرية والاستقلال والمروءة والاحسان والتعاون » وانما هي الفاظ فارغة قلّما فكر مرسلوها في معانيها . كلنا نطالب « بحقوقنا » وليس منا المهتمّ بتأدية واجبات تُشرى بها الحقوق . ولعلنا حيال الثورة على رأس المال نحتاج الى ثورة على الدعوى والغرور . ثورة حصيفة — اذا جاز نعت الثورة بالحصافة —

تحدد الكفاءات . وتقسم العمل . وتعرف الواجبات وتضع الناس في مراكزهم لا عن تحيز لامتيازات الوراثة ، ولا تملقاً للمال أو مراعاة لآراء الاكثرية ، بل وفقاً للكفاءة الطبيعية الملزم المجتمع بانمائها وتعهدها والاستفادة منها عند جميع أعضائه

قلت اني لو كنت ذا كلمة مسموعة لسننت القوانين الآتية واحكمت تنفيذها قبل اصلاح الشوارع ، وانشاء المعارض . وبناء المتاحف . واقامة الاحتفالات ، ونصب التماثيل — وهي :

أولا — ايجاد مطاعم عمومية ومنازل للمبيت . فعار على المدنية ان يموت فيها أفراد من الجوع والبرد . وعار أشد أن يستعطوا قوتهم ويناموا على قارعة الطريق ، أو أن يعمدوا إلى السرقة والنصب والتهجم على المتقلين باعالة نفوسهم واتمام أعمالهم العسيرة . ويجب ضبط النظام في تلك المطاعم لمنع الاحتيال . لان الاستعطاء ليس دواماً حاجة غذائية بل كثيراً ما يكون فطرة وغريزة

ثانياً — منع التسوُّل بتاتاً . فالصالحون للعمل يجب أن يعملوا للحصول على قوتهم . وأما الآخرون المرضى والعجزة وذوو العاهات الجسمية فيأوون الى الملاجىء القائمة على نفقة الحكومة أو المجتمع

ثالثاً — جعل التعليم الاوليّ مجانياً ، على أن لا يكون متماثلاً للجميع ، بل يتعلَّم كلٌّ وفقاً لاستعدادهِ ما يحتاج اليهِ وينفعه فى عمله . فتاجر الاثاث لا يحتاج الى النظريات الفلسفية ، وصانع الاحذية لا يحتاج الى الهندسة الزراعية ، والمهندس لا يحتاج الى قرض الشعر . وطبيعيّ ان لكلٍ أن يتوسع بعدئذٍ في ما يميل اليهِ من المعارف الكمالية — على نفقتهِ الخاصة

رابعاً — ايجاد مكاتب عمومية تُمتحَن فيها الكفاءات وتوزَّع فيها الوظائف والاعمال حسب الاستعداد . فمن الظلم الفادح أن يطلب المرء عملاً بهِ يفيد ويستفيد فيرى جميع الابواب مقفلةً في وجههِ . إذن

لا يعود الكسالى يتذرّعون باحدى تلك الحجج المكذوبة « لا أجد عملاً »

خامساً — ايجاد معاهد كبيرة يأوي اليها من الابناء من شاء أو من كان شقياً بين والديهِ فيضطرب بينهما فكره . أو تعتلّ صحتهُ ، أو ينغص عيشهُ أو — ما هو أخطر من هذه جميعاً — يفقد صفاتهِ الحسنة وتتلاشى نزعاتهُ الطيبة . فقد وُجد الطلاق بحقّ ليفصل بين المتزوجين الذين ليسوا على وفاق ويريحهم . ولكن كيف يعيش الابن الشقي بين أبويهِ ؟ ولمن يشكو همّهُ ، وماذا يقول ؟

سادساً — أن تكون عيادة الاطباء والصيدليات والمستشفيات والتمريض مجانية للجميع على نفقة الحكومة أو المجتمع . فمن العار أن يموت أناس لانهم ليس عندهم أجرة الطبيب ، وثمن العلاج ، أو نفقات العملية الجراحية والمستشفى . كذلك يكون نقل الموتى والدفن مجانيًّا ومتشابهاً للجميع . فان الابهة في

الجنازات من الامور المرسحية التي تشوّه هيبة الموت . فما دام الناس متساوين في تسليم النفَس الاخير فليكن دفنهم مظهراً للمساواة لا مجلى لفروق المراتب في تلك المركبات المنمرة « بريمو » و « سكوندو » و « ترسو »

سابعاً — نفقات المرافعات والدفاع والقضايا المختلفة تكون على الحكومة أو المجتمع . وفي ذلك فضلاً عن المنافع الجمة ، رادع عن الرشوة في بلاد تُستعمل فيها الرشوة ، ورادع لجشع بعض المحامين الواسعي الضمير

ثامناً — أن يفرق في السجون بين المساجين حسب مراتبهم وأخلاقهم . فان الثمرة الصالحة لا تعدي الثمرة الفاسدة ولكن فساد الثمرة الواحدة يمتدّ الى مئات الاثمار الصالحة . ولما كان الغرض من السجن كفّ أذى الجاني عن المجتمع كان من الظلم أن يكون السجن مفسدة للجاني . فلا يجوز أن تمنع عنه الكتب والصحف وما يطلبه من وسائل التثقيف سواء فى العلم والفن والمهنة . ويجب ان يشتري طعامهُ ولباسهُ بعملهِ في السجن شأنهُ في المجتمع،

وألاَّ يُحقَّر ويذلّ . بل يكون هناك في خلوة فيها يشعر بانه أخطأ دون أن يرى في النوع الانساني باسرهِ عدوًّا وجلاّداً . لئلاّ تنقلب قوى نفسه خوفاً ، وكرهاً ، ومرارة ، ورغبة في الفتك والانتقام.

تاسعاً — يقولون أن العضو الفاسد في المجتمع يُقطَع — نعم على شريطة أن يصيب الطبيب في الحكم بالفساد — لا ان يعود يبرّأ المسكين بعد تنفيذ الاعدام فيه كما وقع في بلاد كثيرة . ثم فليُجرَّد الاعدام من مظاهر القسوة التابعة له : كايقاظ المحكوم عليه من رقاده الاخير لان ساعة التنفيذ دنت ، وإلباسه تلك البذلة القرمزية ، وإحاطتهُ بجميع تلك الامور الرهيبة ، وتلاوة الحكم عليه في آخر لحظة من حياتهِ فلا يرى حولهُ إلاّ وجوهاً صارمة ، ولا يامس إلاّ اليد الفاتكة . كلُّ ذلك لم ينفع إلى الآن في ردع أحد ، لا سيما وان تلك الرهبة لا يراها سوى المحكوم عليه . فليكن الاعدام إذن بالكهرباء ، أو بطريقة سريعة جدًّا تقضي على الجاني بلحظة دون ان ينتظر

وقوعها دقيقة بعد أخرى ويوماً بعد يوم . هذا بعد ابلاغه الحكم بمدة كافية ليهيّئ نفسه للموت واتعيد المحكمة نظرها في القضية فتكون على ثقة من صلاحية الحكم

اما المبالغ الضرورية للقيام بالنفقات المذكورة في الاقتراحات الأولى فيؤتى بها من ضرائب سنوية تفرضها الحكومة باعتبار الثروات . وكلٌ يؤدّي الضريبة راضياً اذا ضمنت لهُ ما قد يبذل المبالغ الطائلة عند الحاجة اليه

* * *

لا ازعم ان فكري تمّ نضوجه ، بل ارجو ان يظلّ قابلاً للرقي والتطور طول حياتي . ولكن لا أشك في ان هذه الاصلاحات ستتمّ في المجتمع عاجلا أو آجلاً ، على وجهٍ ما . لاني شاعر بأن لاغنى عنها وان أهمالها جرم متجدد مع الايام . المجتمع ينيل الفرد حياة لم يطلبها هو ، فعلى المجتمع اذن ان يهيّء للفرد امكانية هذه الحياة حسيّاً واجتماعياً ومعنويا. ثم فليفتح له ميدان المسابقة

لتبرز بها ملكاته ومواهبه . واعتقد ان الاحسان إلى
الناس لا يقوم باعطائهم مالاً وقوتاً واثواباً يتمتعون بها
بلا تعب ، فيحسبون الحصول عليها من حقوقهم . بل
الاحسان اليهم هو في فتح عيونهم على القدرة الكامنة
فيهم ، وتنبيههم الى وجوب تبادل الحقوق والوجبات ،
وإفهامهم ان الذي لا يؤدّي واجباً فلا حقّ لهُ

بين الاستاذ سامي الذي ينكر السعادة وصديقي
عوني الذي يرى كل السعادة في حذف رأس المال
ومحو الفروق بين المراتب . اقف انا قائلاً بانّ هنالك
سعادة ممكنة . فقد سعدتُ في حياتي أياماً واسابيع ،
وكل الناس عرفوا طعم السعادة وطعم الشقاء . ولعلّ
السعادة والشقاء مزاج أكثر منهما حالة نفسية . فمن
البشر من خُلق سعيداً أو تعساً كما ان منهم الباسم
والعابس ، الشره والقانع ، البدين والهزيل . ولكن
يتحتم ان يؤدي المجتمع كلَّ ما يمكنهُ ان يؤديهُ
لاعضائهِ ، وهو الى الآن غير فاعل . المجتمع أيضاً

يطالب بحقوقٍ كثيرة ويؤدي واجبات قليلة . فلا غرو ان يحذو اعضاؤهُ حذوهُ

هاانذا وقعتُ في ما اتهمتُ الاحزاب بهِ وخلقتُ لي لُغةً مسهبة لاقول شيئاً قليلا . ثم ما منفعةُ اقتراحاتي على اهميتها وحاجتها في هذا الزمن العصيب ؟ ان الارض لترتجّ تحت اقدامنا والهواء يحمل الينا ما قد يكون لهيباً ودخاناً لحريق سحيق . فالنظم الاجتماعية تتطوّر كـكلّ شيء حيويّ — كما قلتِ في مقالاتكِ وكما هو الواقع — فلننتظر إذن ما هو كائن لاني ارى الانسانية الآن كالافعى تغيّر ثوبها . أراها كالجوّ يتعاقب فيه السكون والزوابع ، الصفاء والغيوم ، النجوم والامطار . كفانا ان نرقب سير الحوادث متكلين على نفوسنا ، محدّقين في وجه الحياة بلا وجل ، مستعدين لتبيُّن الصلاح والحقيقة . ونحن ابداً كالارض امنا التى تقبل البذور الصالحة ثم ترسلها غلّة وخيراً ، واذا هوت

عليها الاشجار اليابسة تجمدت في حضنها مادة للنار واللهيب . ولكن ابداً مطلقين هذا الهتاف الجامع بين الاخلاص والحيرة . بين الزفير والابتهال :
هاأنذا وحدي ، أيها الليل ، فعلّمني ما يجب ان اعلم !
هاانذا مستعدٌ . أيتها الحياة ، فسيّريني حيث يجب ان أسير !

عارف

(صورة طبق الاصل)

فهرست

	صفحة
تمهيد	١
الطبقات الاجتماعية	٧
الارستقراطية	٢١
العبودية والرق	٤٢
الديمقراطية	٦٥
الاشتراكية السامية	٩٥
الاشتراكية الثورية	١٠٧
الموضوية	١٢٤
العدمية	١٣٩
يتناقشون	١٦١
رسالة عارف	١٨٨